

مدحة عكاش صرح الثقافة الشامخ

بقلم:
أ. أحمد شوحان

كلما أبحرت بعيداً عن الشاطئ شعرت بالرهـبة والخـوف، وكلما اقتربت منه شعرت أنـني أقـترب شيئاً فشيئاً للأمان، وشعرت أن روحـي تعود شيئاً فشيئاً إلى جسدي، وأشعر بالطمأنيـنة والأُنس، وأنني أقترب إلى السلام لحظة بعد أخرى.

تـلك هي مشاعر الإنسان الذي يركب الصعاب، ويبحر بعيداً عن أقرانه، فهو يرى ما لا يـرون، ويسمع ما لا يسمعون، ويتحدث بما لا يخطر على قلب واحد منهم.

كذلك رسالة الثقافة والأدب التي يعجز عـن السـير فـي طريقها الوعر أولئك الذين يبحـثون عن المال والجاه والمناصب الرفيعة، ولا يتابع مسيرته في مسالكها إلاَّ القلة النادرة الذيـن يطـرقون أبـواب الخلود فيدخلون في معاقل العباقرة الخالدين، ومنازل الصفوة الذين لهم قصب السبق دون غيرهم.

هكـذا أشـعر كلما طرقت باب الأديب مدحة عكاش، وكلما وقفت خلفه أنتظر السماح لـي بالدخول لأجلس في آخر مكان بين نخبة من الأدباء والمثقفين والشعراء الذين سبقوني إلى مجلسـه سـنوات وسـنوات، ورتعوا في إبداعاتـه شـعراً ونـثراً فترات وفترات، رغم مـرور أكـثر من خمسة عشر عاماً على نشر مقالاتي في مجلته وصحيفته.

ماذا أتحدث عن هذا الرجل، هل أقول عنه إنه شاعر وأديب؟

أعـتقد أن ذلـك لا يشفي غليلي، ولا يعـبِّر عن كل ما أكنّه له من حب وتقدير ذلك أني عرفت عنه الكثير، ولعل كل ما أعرفه عنه لا يـزيد عـن قطرة من بحر من عرفوه قبلي

ممن يلازمون مجلسه، ويترددون يومياً على صالونه الأدبي باستمرار.

لقد قرأت عن حياته كثيراً، عشرات المقالات التي كتبت عنه، وعشرات القصائد التي قيلت فيه، وعشرات الثناءات التي منحها.

لقد قرأت عنه اللقاءات الصحفية والأدبية، وكل كاتب يكتب عنه بما تحلو به نفسه، وما يسيل به لعاب قلمه، وفي جميع ذلك، فما وجدت في تلك المقالات الكثيرة أكثر مما عرفت عنه في زياراتي له في بيته أو مكتبه.

وما أكثر تلك الأوسمة الرائعة التي دبَّجها الأدباء والمثقفون على صدره لتكون معلماً بارزاً في صحيفة حياته، وأثراً يوماً إليه إذا ما عُدِّدت حسنات الأدباء والمثقفين على قلَّتهم في عصر الضياع.

الولادة والنشأة

في حي الدباغة في حماة، وفي خريف عام ١٩٢٣ رأت عيناه نور الدنيا، ليعيش في أحضان والدين حمويين، ينتسبان إلى عائلتين مرموقتين مشهورتين بالأصالة والعراقة وحسن السيرة والمحتد، وكان والده يعمل مديراً لسكة الحديد في محافظة درعا مما جعله يسجل هذه الولادة فيها من غير اكتراث. وما بلغ الطفل الصغير سنتين من عمره حتى فارق والده الحياة ليعيش ولده الكبير (أدهم) وابنته الوحيدة (صبيحة) وصغيرة الأخير (مدحة) أيتاماً في رعاية أم تواجه الصعاب في تنشئة ولديها وابنتها..

وهذه الصعاب أجبرت (مدحة) على ترك المدرسة وهو في الصف الثامن ليشتغل في أعمال مختلفة لتحصيل لقمة العيش، ثم قرر أن يتطوع في الشرطة ليكون شرطياً، يقبض راتباً شهرياً لتعيش منه عائلته، لكن الوساطات التي بذلت لمساعدته في هذا السلك ذهبت أدراج الرياح، فلم يفلح في ذلك، وفاته قطار الشرطة، كما فات من قبل والده قطار الأمل برعاية أبنائه فرحل ولم يعد.

وأطلّ عام ١٩٤١ لينقذ العائلة من بؤس الحياة، وليهيئ للشاب مدحة وظيفة متواضعة في دائرة السجل العقاري (الطابو) في مدينة حلب وبقي في هذه الوظيفة أربع سنوات كان يقرأ كثيراً، وكان ينظم شعراً في المناسبات الوطنية، والحالات القاسية التي يعاني منها في بيته وبلده حماة ووطنه الصغير سورية.

من ذلك ما نظمه حين قامت ثورة حماة عام ١٩٤٥ ضد الفرنسيين، فهو واحد من الشعراء الذين خلّدوا تلك الثورة، ووقفوا في وجه المستعمر الفرنسي الذي يحتل أرضاً، ولا يرحم شعباً.

كيف تشكو (حما) ونحن بنوها
سائلوها عن بأسنا سائلوها
ما أزيز الرصاص إلاَّ أغانٍ
يتبارى بشدوها منشدوها
علمتنا أم الطماح (حماةٌ)
كيف يلقى منونَهم ظالموها

لقد سجن مدحة عكاش أكثر من مرة إبان الحكم الفرنسي، وعذّبوه بسياطهم في كل مرة. ولكنه صمد ضد المستعمرين المحتلين، واستمر في قيادة التظاهرات، وكتابة القصائد الحماسية، ومقاومة المحتل الغاشم.

وبعد أن انتصر الشعب السوري وتحقق الجلاء كان مدحة قد ترك الدراسة لإعالة أسرته، لكنه الآن يحن إليها بعد سنوات، فتقدم إلى فحص الشهادة الثانوية (الفرع الأدبي) مباشرة، مجتازاً سنوات من مقاطعة المدرسة، فنال الشهادة الثانوية بدرجة تفوق على زملائه.

في دمشق

لم يكن أمام طموحات هذا الشاب الذي سبق أقرانه في الدراسة إلاَّ الرحيل إلى دمشق وإتمام دراسته الجامعية، فدرس في كلية الحقوق وفي عام ١٩٥٠ تخرج من الكلية، ولكنه رفض أن يكون محامياً أو قاضياً ولكنه منذ أن نزل دمشق كان يدرّس مادة اللغة العربية وهو طالب في كلية الحقوق، فتابع مسيرته التعليمية، فكان في التجهيز الأولى وثانوية جودة الهاشمي مثل المدرس الذي يغار على مصلحة طلابه،فكان طلابه في تلك الفترة صفوة الشباب من سائر المحافظات السورية، وصاروا فيما بعد بين ضابط كبير أو وزير أو مسؤول في الدولة له مكانته المرموقة. ولكن مدحة بقي فارس الكلمة، وشيخ القلم بين زمرة طيبة من أدباء دمشق والمحافظات الأخرى يلتقي بهم في المناسبات في دمشق، وفي الثانوية التي يلقي فيها دروسه على طلابه.

شعره الوطني

كان شاعرنا خلال دراسته الجامعية شاباً ملتهب الحماس، جريئاً ينظم القصائد في المناسبات، ويلقي الكلمات في الملمات، ويشارك في المظاهرات التي تنطلق من الجامع الأموي أو من الجامعة تندد بالمستعمر الفرنسي أو التواطؤ الإنكليزي الذي احتل فلسطين وجعلها لقمة سائغة لعصابات الصهاينة الغازية في مشارق الأرض ومغاربها. فكانت كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ حيث قامت دولة إسرائيل وحصلت النكبة فتشرد الفلسطينيون شذر مذر في الآفاق يبحثون عن لقمة العيش بعد أن ذهب وطنهم أدراج الرياح نتيجة الخيانات والمؤامرات وبريطانيا، فماذا قال مدحة عكاش في تلك الأيام عن المأساة..؟!

لقد فضح الأنظمة العربية وكشف أباطيل الطغم الحاكمة فقال:

لا تقل أمتي أضلت خطاها
واستكانت للذل والبأساءِ
يشهد الله أننا ما بخلنا
بنفوس كريمة سمحاء
نحن أهل الندى فسل ساحة القد
س، لتنبيك عن ندى الكرماء
إنما قبل أن تُنال الأماني
طعنتنا مطامع الرؤساء
ما على النسر بعد فقد جناحيه
ملام إن بات في الصحراء

كيـف يـلقون وجـه رب البرايا

وبأعـــــناقهم دم الشــــهداء

ويســتمر فــي التدريس في الثانويات وفي جامعة دمشق حتى عام ١٩٥٨ حيث رأى الــرجل فــي نفســه المقدرة على قيادة عجلة الثقافة في هذا القطر الحبيب فلوى عنان فرسه مــن الـتدريس والتعـليم المستمر إلى خدمة الـثقافة محـلياً، وعــربياً، ومهجــرياً، وجاء ممــتطياً صهوة الصحافة وما فيها من متاعب وآمال.

أمــا شعره الرقيق، فأغلبه يتحدث عن الحــب والجمــال، ومــا يسعد الروح والقلب، وجــاءت قصــائده غــنائية غــناها عدد من المطــربين ولحَّنها بعض الملحنين أمثال: حليم الــرومي، ونجيب السراج وغيرهما. وقد حفظ آلاف القصــائد الشعرية فهو يحفظ لكل شاعر جاهــلي، وكثيراً من قصائد الشعراء الأمويين فالعباســيين ومــن جــاء بعدهــم حتى عصر النهضــة، بل نجده يحفظ قصائد أصدقائه الذين عاشــوا معه، وجالسوه في مكتب مجلته أمثال بدوي الجبل والرصافي، وعمر أبو ريشة، وإذا كــان شــاعرنا شاعراً كلاسيكياً يعتمد الأصالة والــتراث فهــو مع كل جديد في الشعر والنثر وهو الذي يحفظ كثيراً من قصائد سميح القاسم ومحمــود درويش ونزار قباني الذي أحبه حباً جمــاً، ودافــع عــنه فــي كثير من المقابلات واللقاءات الصحفية خلال حياته وبعد رحيله.

مجلة الثقافة.. وجريدة الثقافة

كان عام ١٩٥٨ هو بداية التحول في مســيرة مدحــة عكــاش، فهو الآن ينتقل من صخب الطلاب في صفوف المدارس والجامعة، إلى مكتب مستقل يأوي إليه الأدباء والمثقفون ليصــدر من خلاله (مجلة الثقافة) الشهرية و (جــريدة الثقافة) الأسبوعية، التي جعلها موئلاً للأقــلام الشــابة، التي تحولت شيئاً فشيئاً إلى أقــلام بارزة وأصبحوا أعلاماً لهم مكانتهم في عالم التأليف والنشر في هذا القطر، ولو أردنا أن نحصــي أدباء سورية المعاصرين لتبين لنا أنهم كانوا قرّاء للثقافة (الأسبوعية والشهرية) ثم كتاباً فيهما.

إن مكــتب وإدارة ومطبعة المجلة في شارع الأرجنتين بدمشق يعطيك صورة مصغرة عــن الــبيت الدمشــقي القديم حيث يلتقي في فســحته وحديقــته وحول بركته الجميلة كبار الكــتاب الســوريين الذيــن يــرفدون المجلة والجــريدة بمقالاتهم، ولقد سعدت بذلك الملتقى كــلما نزلت دمشق، ثم انتقل مكتبها إلى بناية بــرج دمشق عام ٢٠٠٠ بعد هدم تلك المنطقة لتجديدها.

لــن أنسى تلك الحوارات والمناقشات الأدبية التي يطرحها الحاضرون بأدب ووقار لا مثيل له.

ولــن أنســى تلك المجالس التي تنعقد فــي مكتــبه. وحينما كنت أسافر خارج القطر وأفــتقده فترة قد تصل شهراً أو شهرين أتصل بــه بالهــاتف لأسمع صوته الرخيم، وكلماته العذبــة الــتي يقول في أغلبها: متى تنزل إلى دمشق متى نراك؟ وهكذا أطمئن عليه، وأطمئن على التواصل معه.

إن قــلب الأســتاذ مدحــة قــد ارتبط بالمجلة. فكلمته المشهورة: (إذا توقفت المجلة توقــف قلبي) يحفظهــا جميع عشاق الثقافة وروّاد مكتبه وأصدقاؤه.

موقعه في عالم الثقافة

كان يكتب كثيراً، ويشارك في المنتديات الأدبية والثقافية، ويشارك في الاحتفالات والمهرجانات. حتى كان في عام ١٩٦٠ علماً بارزاً من أعلام سورية ثقافة وصحافة وشعراً، وتعدى إطار القطرية الضيّق ليكون أحد أعلام الأدب العربي البارزين في المهاجر التي برز فيها اسمه، ولمع فيها نجمه.

وهو عضواً في اتحاد الصحفيين السوريين.

كان مديراً لكلية دمشق العربية (الأمريكية سابقاً)

كان نقيباً للتعليم الخاص.

كان عضواً في لجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وهو عضواً في إتحاد الكتاب العرب.

كان مقرراً لجميعة الشعر في اتحاد الكتاب العرب عدة سنوات.

وهو عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في دمشق.

ونتيجة لهذه الجهود المضنية في عالم الثقافة فقد كرّمه الأباعد قبل أبناء وطنه، واحتفى به الغرباء قبل أبناء جلدته، وأقام له غير العرب الاحتفالات الخاصة، فقلّدوه أجمل وأرقى الأوسمة الأدبية تقديراً لجهوده في خدمة الثقافة.

في عام ١٩٨٧ نال وسام الثقافة البلغارية.

وفي عام ١٩٩٠ نال جائزة جبران العالمية من رابطة إحياء التراث العربي في أوستراليا.

وفي عام ١٩٩١ نال وسام الاستحقاق من جمهورية كوريا الديموقراطية.

وقد كُرِّم الأستاذ مدحة عكاش في دمشق في صالون الأديبة حنان نجمة. وفي محافظتي حمص وحماه. وبعض المحافظات السورية، لكن هذا التكريم لم يكن رسمياً وبالشكل الذي نراه لما سبق من الجهات خارج القطر.

أقوال الشعراء فيه

قال الشاعر شوقي بغدادي في تكريمه:

مدحة والليل على بابنا
ماذا تزودت لهذا السهر
ها مرّت الدنيا ولم ننتبه
فهل تبقت فسحة للسمر
مدحة والإعياء قد هدّنا
كيف تحملت الأسى والضجر
انظر تلفّت من تبقى ومن
غاب من الركب ومن ذا حضر
لم يبق إلاَّ أنت تحدو على
إيقاعهم، أو تستعيد الصور

وقال الشاعر جابر خير بك:

من أين أبدأ، والأشواق تتقد
والفكر خلف قوافي الشعر يجتهدُ
من أين أبدأ، تاه الحرف في قلمي
وراح ينزف من آلام ما أجد

يــا سـيد الحــرف، والأزمان شاهدة
أن الفكــر عــبر الدهــر مضــطهد
قضــيت عمــرك والفصحى تصارعها
حــتى اســتقامت لــك الأركان والعمد
يــبقى الأديــب غريــباً في عشيرته
زوّاره الخــوف والحــرمان والــنكدُ
يــا مدحــة الخير لم أكتب سوى شذر
عــن الشــمائل عمــا فيــك يحتشــد

وقال الشاعر خضر الحمصي:

العــبقرية مــنك أنــت رســولها
وبــريق لؤلؤهــا بكــل زمــان
حمــل الــتراث بفكــره وضميره
مــتخطياً إطلاقــة الــبركان
إبــداع فكــرك جوهــر مــتميز
يهــدى لكــل معــذب ظمــآن
كــل الخــليقة قدَّرتــك تكــرماً
وســعت إليــك روائــع الــتيجان
فاهــنأ بكــل قــلادة قــد نلــتها
فلأنــت بــدر لــن يطولــك ثــان

وقال الشاعر الجزائري زياد البصري:

كــتمت محبــتي وخشيت بوحي
لكــثرة مــن يحــب ومــن يبوحُ
فكيــف (لمدحــة) أهدي مديحي
وكيــف تشــيد بــالقمم الســفوح
وشــلال القــريض يفيــض حيناً
كمــا فــي الصــخر ينفجر القريح
فــلا أقــوى عــلى دفعــي لسيل
يفجــر صــخره قــلب وروح
أيــا دار الــثقافة طــبت دارا
فوجهــك لــلذي يدنــو صــبيح

ولا يمنعني أن أذكر هنا كلمات الأديب الكبير الدكتور شاكر الفحام الذي ألقى كلمة في تكــريمه فــي مكتــبة الأسد عندما نال جائزة جبران يقول فيها:

"إن الصــديق الأســتاذ مدحة عكاش ليمــثل في مسلكه ومنطلقاته في الحياة فضائل هــذا الجيــل وخصاله الحميدة، لقد شارك في مسيرة وطنه النضالية المشاركة الجادة مندفعاً لا يــبخل بتضحية، ثم واجه بشجاعة وتصميم الصــعاب والعقــبات التي اعترضت مطامحه، فتغــلب عــليها بصــبره وجــلده على العمل والدرس".

طموحاته

كــان الأستاذ مدحة عكاش منذ بداية شــبابه طموحــاً، ينظر بعيداً، ويفكر مستقبلاً وربمــا كان يطمح بأشياء لم تتحقق له بعد في ســنّه المــتأخرة، ولو كتب لنا مذكراته لأبان للقارئ الكثير من خفايا حياته وأسرارها.

مــن تلك الطموحات التي تحدث عنها في إحدى قصائده في أيام الشباب قوله:

وكــنت أعيــش عــلى موعــد
ســيذبل عمــري ولا يــورق

ولعله في هذا البيت يشير إلى الصرح الثقافي الذي يحلم به قبل تأسيس مجلة الثقافة في أيار ١٩٥٨ وقبل أن يصدر عن إدارة المجلة أكثر من ثلاثمائة وخمسين كتاباً في الثقافة والفكر والأدب.

ترى.. ألم يورق عمره ويزهر بعد أن قدّم للثقافة ما قدَّم!!

أغلب الظن أنه أورق، وأزهر، وأينع ثماراً طيبة للأجيال اللاحقة.

من كُتّاب المجلة

حين نتصفح مجلة الثقافة وجريدتها منذ تأسيسها نجد أنها نشرت مقالات وقصائد لكبار الأدباء والعلماء والشعراء.

أذكر منهم: شفيق جبري، خير الدين الزركلي، عبد الغني العطري، الدكتور شاكر الفحام، الأستاذ عبد المعين الملوحي، الأستاذ عدنان مراد، الأستاذ محمود فردوس العظم، الأستاذ عبد الكريم ناصيف، الدكتور عبد السلام العجيلي، الدكتور هاني نصري، الأستاذ نعمان حرب، الأستاذ وليد قمباز، الدكتور إبراهيم الكيلاني، الأستاذ بديع حقي، الدكتور عمر النص، والدكتور شكري فيصل، الدكتور شاكر مصطفى، الأستاذ أحمد الخوص.

ونشر لي عشرات المقالات (الافتتاحية) في المجلة والجريدة منذ عام ١٩٩٠ حتى الآن، جزاه الله خيراً وأمد في عمره.

أما الشعراء فيأتي في مقدمتهم الشاعر أبو وضاح جابر خير بك والشاعر خضر الحمصي، الشاعر محمد منذر لطفي، الشاعر عبد الكريم دندي، الشاعرشوقي بغدادي، الشاعر وليد مشوح، الشاعر حسين حموي، الشاعر وجيه البارودي، الشاعر بدوي الجبل، الشاعر عمر أبو ريشة والشاعر نزار قباني.

مؤلفاته

للأستاذ مدحة عكاش مؤلفات كثيرة بعضها مطبوع، وبعضها لا يزال مخطوطاً، منها:

١- صحيح اللغة العربية. في نحو /٧٠٠/ صفحة. مخطوط.

٢- مذكرات أدبية. في نحو /٧٠٠/ صفحة. مخطوط.

٣- ديوان (يا ليل) ديوان شعر ويضم القصائد الغزلية التي نظمها في مطلع شبابه وآخرها كان عام ١٩٥٦.

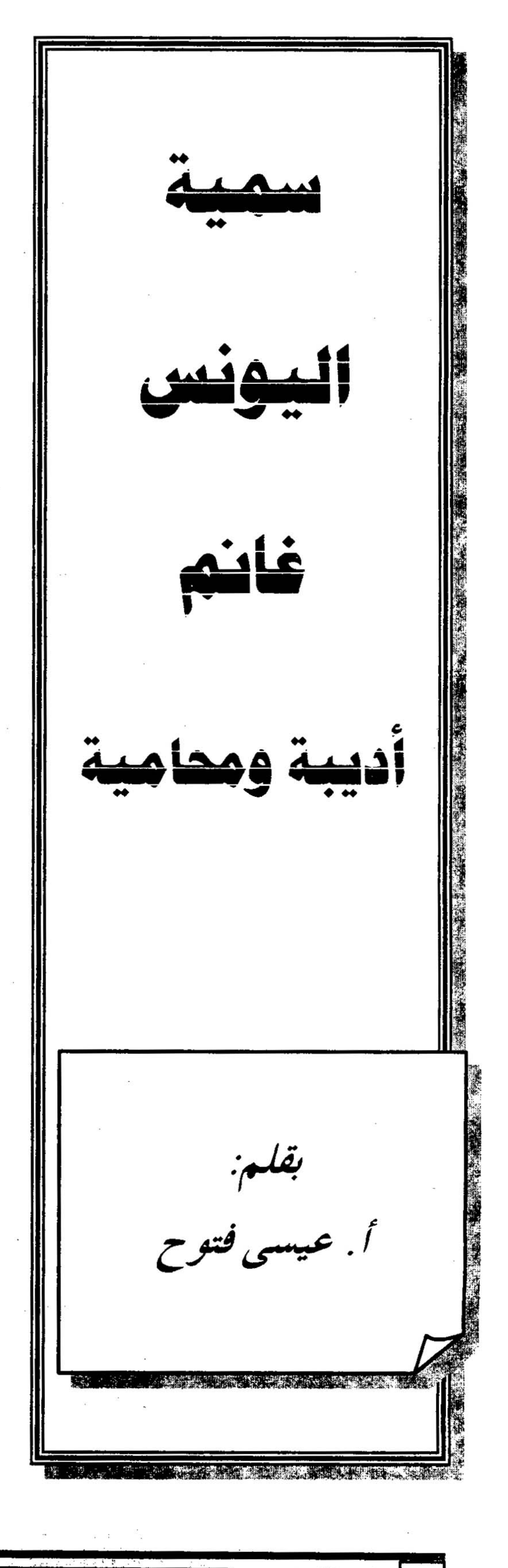
٤- ابن الرومي. دراسة. مطبوع.

٥- أبو تمام. دراسة. مطبوع.

وسأعود في مقال لاحق إن شاء الله تعالى إلى وقفة سريعة مع مؤلفاته في الشعر والنثر.

أرجو أن يمد الله بعمر أستاذنا مدحة عكاش ويهيء له الهمة العالية لطباعة مخطوطات حبيسة في خزانته.

هذا هو صرح مدحة عاش، مفخرة سورية، بل مفخرة أدباء العربية المعاصرين.



سمية اليونس غانم

أديبة ومحامية

بقلم:
أ. عيسى فتوح

السيدة سمية اليونس غانم أديبة وقاصة ومحامية رائدة، وهي كريمة الأديب والسياسي العريق الدكتور عبد اللطيف اليونس، أحد رجالات الوطنية والاستقلال في سورية، وزوجة الأستاذ الدكتور محمود السيد وزير التربية والثقافة حالياً، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق..

ولدت الأستاذة سمية عام ١٩٤٢ في مدينة صافيتا، وتلقت دراستها الابتدائية فيها، أما الإعدادية فكانت في مدرسة داخلية لراهبات القلبين الأقدسين في مدينة بانياس الساحلية، حيث تعودت في هذه المدرسة قدسية النظام، وأهمية الاعتماد على النفس، والعكوف على المطالعة، والتثقيف الذاتي.

حين نالت شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٦٠ شجعها والدها على دراسة الحقوق، فانتسبت إلى كلية الحقوق بجامعة دمشق، وتخرجت منها عام ١٩٦٤، ثم امتهنت المحاماة، فكانت أول محامية في محافظة طرطوس، وبعد أن مارست هذه المهنة مدة عشر سنوات في مكتبها بصافيتا، انتقلت للعمل في الجهاز المركزي للرقابة المالية بدمشق، حيث أمضت خمسة وعشرين عاماً (١٩٧٦-٢٠٠٠) وأثبتت نجاحها وتفوقها فيه.

في عام ١٩٦٨ تزوجت من الأستاذ الدكتور محمود أحمد السيد، وسافرت معه إلى القاهرة، حيث تسجلت في جامعتها لإتمام دراستها العليا في الحقوق، وأعدت دراسة مقارنة حول (نظرية الاشتراط لمصلحة الغير وتطبيقاتها على عقد التأمين في القانون السوري واللبناني والمصري) لكن ظروفها العائلية حالت دون إتمام الدراسة.

في عام ١٩٧٦ رافقت زوجها إلى الكويت للتدريس في جامعتها، فأسهمت هناك في تأسيس رابطة المرأة السورية، كما رافقته إلى تونس حيث عين مديراً للإدارة التربوية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ندبت في ٢٢/١١/٢٠٠١ عضواً في المكتب التنفيذي للاتحاد العام النسائي، وتسلمت المكتب المالي والقانوني، وقد كتبت بعد تسلمها هذا المنصب سلسلة دراسات عن المرأة بعنوان (اعرفي حقوقك) وهي عضو في جمعية تنظيم الأسرة، وجمعية العلوم النفسية السورية، ومجلس الاتحاد العام النسائي، وأم مثالية أنجبت أربعة أبناء كانوا فخراً للأسرة التي أنجبتهم، بعلومهم العالية وأدبهم الرفيع، وتفوقهم في المجالات التي تخصصوا بها.

آثارها القانونية والأدبية

أصدرت السيدة سمية اليونس غانم عدة دراسات قانونية، ومن هذه الدراسات:

١- المرأة في الموروث الاجتماعي.
٢- مفهوم الإدارة بين النظرية والتطبيق.
٣- توعية المرأة بحقوقها الاجتماعية والاقتصادية.
٤- مقارنة القوانين السورية مع اتفاقية القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة.
٥- من ضياء الحياة (مقالات أدبية).

وسأتوقف عند هذا الكتاب الأخير الذي ضم عدة مقالات أدبية، كانت قد نشرت بعضها في مجلات (دنيا المرأة) اللبنانية، و (المرأة العربية)، و (الثقافة) وجريدتي (الأنباء) و (الوطن) اللتين أصدرهما والدها، الأولى عام ١٩٦٧ في البرازيل، والثانية عام ١٩٧٥ في الأرجنتين.

تضمن كتاب (من ضياء الحياة) الذي أهدته إلى وطنها الحبيب ولاء وانتماء، وروح أمها الطاهرة، ستاً وعشرين مقالة، وكتب مقدمته والدها الدكتور عبد اللطيف اليونس الذي أشاد بشغف ابنته (سمية) بالمطالعة إلى حد بعيد، فهي حين تأتي لزيارته وتفقده، يهمها مع واجبها نحوه، أن تقرأ وتقرأ وتقرأ.. كما أشاد بأسلوبها الخاص الذي يمتاز بأناقة الكلمة، وعمق الفكرة، وجمال الديباجة، وبسعة ثقافتها، ودقة اطلاعها، وحسن استيعابها لما تقرأ.. ومع هذا فهي تؤمن بأنها لا تزال في أول الطريق.

وقال: مثلما هي شغوفة بالمطالعة، فهي شغوفة بالكتابة أيضاً، فدائماً هي مع اليراع والقرطاس، أو إنهما دائماً معها، ولهذا فهي مع العطاء الفكري باستمرار..

أما الأستاذة سمية فتعترف في مقدمتها بأن القلم كان ولا يزال رفيقها الدائم في وحدتها النفسية، وغربتها الجسدية.. فهو الذي يترجم أحاسيسها، وينفس عن كربتها، ويواسيها.. وهو الرئة الثالثة التي تتنفس بها، وبوساطته استطاعت أن تكتب هذه الباقة من المقالات التي فاضت بها قريحتها، إما خلال السفر خارج الوطن، أو في حال استقرارها في منزلها بأرض الوطن الغالي..

تحدثت في هذه المقالات، عن بعض القضايا الوطنية والأدبية والاجتماعية، فتوقفت في إحداها عند ذكرياتها عن أبيها الذي يبدو لي أنها تأثرت إلى حد بعيد جداً بآرائه وأفكاره وحكمته في الحياة، وأسلوبه في الكتابة،

وولعه في اختيار الألفاظ الأنيقة، والجنوح إلى الديباجة الحلوة، والعبارة المترفة، والأسلوب الناصع المشرق، والخيال المجنح، والموسيقى الشجية.. سواء في شعره أم في نثره.. وقالت عنه (إنه من أبرز الأدباء الذين اشتهروا بالأسلوب السهل الممتنع، ولا تزال قدرته على العطاء تزداد يوماً بعد يوم في جميع المجالات ولا سيما في الشعر، فقد نظم وهو في الثمانين قصيدة تجاوزت أبياتها مئة وعشرين بيتاً!)

وتحدثت في مقالتها (بس يا بحر) عن الفلم الكويتي الذي حمل هذا العنوان، وصور حياة الناس على شواطئ الخليج العربي قبل اكتشاف النفط، والتمتع بالمخترعات الحديثة من مراكب وبواخر ويخوت فقالت: (وكذلك البحر، هذا العالم الفسيح بوجهه الباسم الضاحك، أصبح رمزاً للمتعة والاستجمام، أكثر من أي وقت مضى، فأين هي استغاثة الأفئدة الشابة على رمله، وبين موجاته العابثة، مداعبة نحور الحسان، ضاحكة بين ضفائرهن، ملونة أجسادهن الجميلة بألوان برونزية رائعة.. ها هي ذي الشمس بقرصها الذهبي الرائع تنشر الجمال والحياة بتداخل فوضوي رائع من الألوان الزاهية، بين الموج الأبيض والأزرق ينسج الخالق روعة الطبيعة وجمالها، فلا يسعك إلاَّ أن تصرخ بكل سرور وحبور: (بس يا بحر كفاك جمالاً وروعة وبهاء.. كفاك).

ويتجلى أسلوبها الأدبي الناصع المشرق في كل مقالة من مقالاتها، فهي تعرف كيف تختار الألفاظ الأنيقة، والعبارات الجميلة المعبرة عن أفكارها بصدق، وتنتقيها بذوق، كما في مقالتها (وهزئت بالشكوى) التي تقول فيها: (عتمة الليل تنير قلوب المتعبين.. زبد البحر يغسل آهاتهم وزفراتهم.. ظلام الأفق يحتوي نظراتهم التائهة.. اللقاء السرمدي بين الموج والشاطئ وأمواج البحر.. كيف يحتضن الرمل بأمومته الفياضة الموج الصاخب؟ هو يثور وهي تحتضنه بين ذراعيها لتغسل ثورته وغضبه. هو يزمجر، وهي تمتص رحيق نفسه لتنقذها من الضياع، هو يضرب، وهي تمسك عصاه لتوقفها بحنان)..

ومقالتها (الإيمان) التي تعبر فيها عن تجربتها في الحياة، وترمي من ورائها إلى إصلاح المجتمع ودعوة وهدي الناس إلى اتباع السلوك النبيل. ودفعهم إلى التمسك بالقيم والفضائل والمبادئ الأخلاقية السامية فتقول: (الإيمان قبس يشع من داخل الإنسان، نور يضيء له طريق الحياة، فيهبه القوة والإرادة والمراس، أمل يبزغ في حنايا النفس المتعبة، فينير لها طريق الأحلام، ويبدد الآلام لتسير من خلاله في دروب الحياة الصعبة، فتورق الأحزان حكمة.. من ابتعد عن الإيمان فقد ابتعد عن أسمى شيء في حياته، وأصبح آلة دون إحساس..).

وأجمل ما قرأت في كتابها (من ضياء الحياة) مقالتها (وداع في ليلة الزفاف) التي تقدم فيها لابنتها المقبلة على الزواج نصائحها وهي تعبر جسر الحياة من ضفة إلى أخرى، من البيت الذي رعاها بحنانه وعطفه وعقله وقلبه، بأحاسيسه وعواطفه، إلى البيت الذي ستبنيه بروحها وإرادتها، من العطاء اللا محدود.. إلى الحياة العامة والأحلام الوردية

لبناء العش الهادئ الصافي والمتوازن قائلة: (السعادة يا بنتي لا تأتي من مكان مجهول، إنها تنبع من نفسك الرصينة، فأنت بروحك الشفافة تصنعين سعادتك وتحافظين عليها، وتعطين لعشك الصغير، ولرفيق دربك الحنان والمحبة والعطاء..)

أتمنى لو تقرأ هذه المقالة الرصينة والمفيدة كل فتاة مقبلة على الزواج، لتتخذ مما ورد فيها منهجاً تسير عليه، ومبدأ تنطلق منه لتحيا حياة سعيدة مع زوجها وأسرتها، لا يعكر صفوها ما يحدث في أيامنا من خلافات تزعزع أركان الحياة الزوجية، وتهدم بناء الأسر السعيدة.

وأتوقف بعد هذا عند مقالتها عن الأديبة الكبيرة ألفة الإدلبي التي حضرت حفلة تكريمها، في مكتبة الأسد كرائدة وأديبة وسيدة متميزة فتقول عنها: (صفق لها قلبي قبل أن تراها عيني، رأيتها من خلال أحرفها، عشت معها من خلال أدبها المترف الغني، بالعبارة الحلوة، والخيرة والنيرة.. كتبت وترجمت أحاسيس بنات جنسها في زمن كانت مئات الفتيات مازلن يحلمن بتعلم القراءة والكتابة، فكانت صورة صادقة للمرأة الدمشقية في ذلك الحين..)

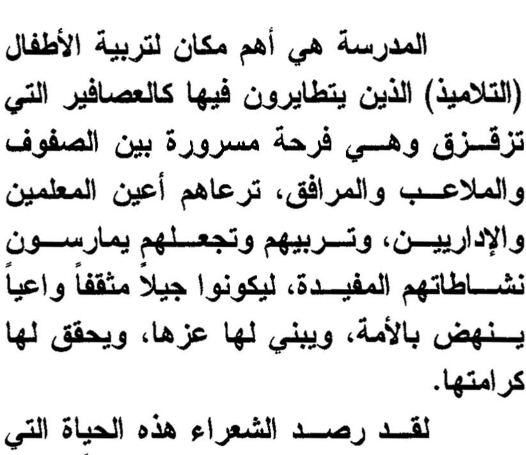
وتقول أيضاً إنها (أعطت مثالاً حياً للمرأة الطموح التي لا تقف مكتوفة الأيدي أمام العادات والتقاليد، والتي لم يمنع الزواج المبكر موهبتها الأدبية من الانطلاق، وقد صعدت درجات السلم خطوة خطوة، وكانت رائدة في التعلم الذاتي، وبرهنت أن حجاب المرأة بالأدب والأخلاق أجمل حجاب..)

ومن مقالاتها القيمة والجيدة التي تستوقف القارئ، وتثير اهتمامه، وتدعوه إلى قراءتها أكثر من مرة مقالتها (باقة ورد للدكتورة مها العطار)، هذه المرأة الدؤوبة والعصامية المجدة التي بنت نفسها بنفسها، وحصلت على شهادة الدكتوراه في الآداب، بعد أن صارت جدة، وبلغت خريف العمر.. ولم تستطع المأساة المروعة التي عصفت بها، فأفقدتها ابنتها الشابة، وأحفادها الثلاثة في حادث سيارة أليم، أن توقف طموحها، أو تحد من تطلعها لبلوغ أعلى درجات العلم والمعرفة، بفضل إيمانها بالله، وثباتها وعنادها.

ومقالتها (العندليب العائد بمناسبة وفاة نزار قباني) الذي (عاد على أجنحة المحبة والوفاء، ليرقد في عشه الخالد دمشق، محملاً بعبير العرفان، ومعطراً بياسمين الوفاء، وموشحاً بعباءة الحنان الوطني.. عاد بعد أن غرد سنوات طويلة مقيماً ومغترباً، سفيراً ومواطناً، شاعراً وأديباً..).

لقد كان كتاب (من ضياء الحياة) بداية طيبة للسيدة سمية اليونس غانم التي فتحت عينيها على حب الأدب وصحبة الكتب في بيت عريق عامر برفوفها.. لكنها تأخرت في جمع مقالاتها ونشرها في كتب حتى هذا الحين، وكل ما نأمل أن تعوض عما فات ببذل المزيد من العطاء على صعيد الأدب والقانون الذي تخصصت به، فترفد المكتبة العربية بكتب أخرى، لا تقل أهمية عن هذا الكتاب المختصر المفيد..




المدرسة هي أهم مكان لتربية الأطفال (التلاميذ) الذين يتطايرون فيها كالعصافير التي تزقـزق وهـي فرحة مسرورة بين الصفوف والملاعـب والمرافق، ترعاهم أعين المعلمين والإداريين، وتـربيهم وتجعـلهم يمارسـون نشـاطاتهم المفيـدة، ليكونوا جيلاً مثقفاً واعياً ينهض بالأمة، ويبني لها عزها، ويحقق لها كرامتها.

لقـد رصـد الشعراء هذه الحياة التي يعيشـها الـتلاميذ، وقدموها لنا صوراً جميلة ومعبرة عن جد التلاميذ وهواياتهم ولعبهم.

إن العـام الدراسـي يـبدأ فـي فصل الخريف وينتهي في أوائل فصل الصيف.

فيفرح التلاميذ ويقبلون على المدرسة زرافات ووحدانا وهم ينشدون:

عُدنـا عدنـا بدفاتـرنا
بأغانيـنا وبشـائرنا
البسـمة فـي شـفتي
مـا أحـلى مدرسـتي
مـا أحـلى الـدرب عصـافيرا
وفراشـات وأزاهيـرا
والفصـل خـريف

وعـن بـدء الدراسة، وإقبال التلاميذ أفواجـاً أفواجاً مرفوعي الرأس، يقول الشاعر التونسي مصطفى عزوز:

أدبـر الصـيف سـريعاً
فهـلموا يـا رفـاق
سـاعة العـودة دقـت
لـلقا بعـد الفـراق
مرحـبا يـا معهـدي
أنـت ذخري في غدي

هــذه الأطفـــال تسـعى
كالســـيول الجارفـــة
تمـــلأ الدنيـــا نشـــاطاً
فـــي خطاهـــا زاحفـــة
تـــرفع الـــرأس تنادي
نحـــن آمـــال الـــبلادِ!

ويمضـــي الـــتلاميذ فـــي الاجـتهاد والتحصـيل، ويجـتازون الامـتحان في نهاية العـام، وتعلن النتائج ويُعرف الناجحون، وتبدأ عطلة الصيف، فيقول الشاعر مصطفى عزوز:

أقـبل الصيف ضحوكاً كالصباح
وانقضـى العـام جهـاداً وكفاح
كـل مـن كـد فقـد نال النجاح
سيُقَضِّـي الصيف لهواً وانشراح
نحن قوم ليس يعرونا الكسل

التلاميذ في المدرسة

فـي كل يوم من أيام الدوام الرسمي، يقـف التلاميذ لتحية الصباح، ثم يتوجهون إلى الصـفوف مثـنى مثنى بانتظام، لتمتد إليهم يد المعـلم بـرفق وحـنان تزيل عنهم غشاوات الجهـل، وتربيهم ليشبوا على الاستقامة، وفي الصـفوف يسـمعون ويكتـبون ويناقشـون ويتحدثون وأحياناً يشاغبون.

كـل ذلك رأته أعين الشعراء وخاصة المعـلمين مـنهم فرسموا تلك المشاهد، يقول الشاعر جابر خير بك على لسان أحد التلاميذ:

رفـــاق الصـــف أصـــحابي
وخلانـــــي وأتـــــرابي
همـــوم الـــدرس تجمعـــنا
كـــإخوان وأحـــباب
ونـــنهل مـــن مـــنابعه
ســـنا عـــلم وآداب
نـــدوِّن فـــي دفاتـــرنا
خلاصـــة رأي كُـــتّاب
فندرســـها ونحفظهـــا
ونـــبقى خيـــر طـــلاب
يداعـــب بعضـــنا بعضـــاً
بـــلا عـــنف وإرهـــاب
أبـــادل مـــن يبادلـــني
بـــأقلامي وألعـــابي
ونقضـــي اليـــوم فـــي مـــرح
وفـــي درس وإعـــرابِ

فـإذا ما خرجوا إلى ملعب المدرسة، عـلا صـياحهم، وهـم يلعبون ويتراكضون، فيـرتاحون مـن عناء الدرس، يغمرهم الحب والوئام:

أجمـل السـاعات بعـد الـتعب
هـي مـا تمضـي بنا في الملعب
نـتلاقى فـي عـراك ليّـن
نـاعم الـلمس شـديد الصـخب
نمـلأ المـلعب مـن أصـواتنا
بعضـنا يعـدو كعـدو الأرنـب

وإذا سـنحت الفرصـة لإجراء مباراة بكرة القدم أو بأي لعبة أخرى، يقسّم اللاعبون أنفسـهم إلى فريقين، وكل فريق له ما يميزه، ويـدورون فـي المـلعب كـالكواكب في كبد السماء:

كـل فـريق ينـتقي أصـحابه
صـادق الحـب نـبيل المطـلب
وفـريق فـي لـباس أسـود
وفـريق فـي لـباس الكوكـب

وعلى الصدر خطوط برزت

بحروف من حرير القصب

وجموع في حماس صاخب

يغمر الدنيا لأدنى سبب

تتلوى كفراشات الضحى

كلما دقت طبول اللعب

إلى جانب هؤلاء اللاعبين الصاخبين، توجد فئة هادئة، تقضي الفرصة بين الدروس في أحاديث وسمر، يصفهم الشاعر جابر خير بك بقوله:

ولفيف هادئ يمشي معاً

يتناجى في حديث طيب

وأظنهم قلة بين تلاميذ المدارس في هذه الأيام.

وتطير العصافير فرحاً إذا ما نظّم لهم المعلم رحلة إلى الآثار التاريخية، أو صحبهم في نزهة إلى حديقة أو غابة.

وذات يوم قام الشاعر المعلم (مصطفى أحمد النجار) برحلة مدرسية مع تلاميذه إلى قلعة حلب، وأمام القلعة وقف أحد التلاميذ أمام الباب الكبير، يسأل عن حامل مفتاح باب القلعة، الذي يظنه كبيراً يحتاج إلى رجل قوي لحمله، فوقف المعلم عند هذا السؤال ليدخل إلى عالم الأطفال ويقدم لهم جواباً للسؤال، ويقدم لهم بعض الوصايا التي تنير لهم الطريق يقول لهم الشاعر بعد أن يصف فراشاته أمام باب القلعة:

ويسأل طفل بريء سؤالاً

فيفتح قلبي.. تطير فراشات

تجري قناديل.. أشهق أشعر

أن دموعاً تسيل

صغيري.. صغاري

تلاميذ هذا الزمان العصي العجيب

أود جواب السؤال

وحالاً أريد التفكر في مقفلات الحصون..

فهذا الزمان خطير المراس

وهذا الزمان جميل..

فكونوا خيولاً

تركض فوق سنام الوجود

وفرسان عصر بغير حدود

لنفتح بالسيف بابا وبابا

وبالحرف نفتح باب الحياة..

لقد طالب الشاعر التلاميذ بالصعود إلى المجد منذ الصغر ليفتحوا العالم بالحرف والسيف، ولكل من الحرف والسيف دلالاته.

<u>دور المعلم في تربية التلاميذ</u>

إن المعلم يهب للأجيال عصارة فكره، ويرعاهم بعينه، حتى يشتد عودهم، وينشؤوا وقد تزودوا بالعلم، وتحلوا بالأخلاق الفاضلة.

فعن تأثير المعلم بتلاميذه وتأثرهم به، نسمع الشعراء يقولون معترفين بفضل المعلم وعطاءاته، فيقول الشاعر مخاطباً المعلم:

غسلت عن عقولنا الظلاما

فأعشب الطريق واستقاما

زرعتنا سنابلاً تموج

زنابقاً تفوح أو خزامى

ويقول الثاني:

أحبيب هذا النشئ تسقيه

على ظمأ دماك

كم وردة من غرس نفسك

راح يجنيها سواك؟

تـروي الظمـاءَ القاصـديك
ولا تـبلُّ بـه ظمـاك

ويقول الثالث عن المعلم:

يـرعى مـع الأيـام قافـلة
تحـدو جـبين الشـمس تأتـزر
تجـتاز درب الـنور عاشـقة
فهـي عـلمها تـنمو وتزدهـر
عيـن عـلى الأطفـال تحرسهم
والـنور فـي الألـواح ينـتظر

ويعـلن الشـاعر المعلم (محمد فهمي الحمـدان) أنه يقوم بتربية الجيل لأن ذلك حق لأمته عليه:

وننشـئ الجيل مشدوداً بأجمعه
لـدورة الفكـر والأخلاق والهمم
حـق لأمتـنا ألاَّ نخيـبها
أشبالها من دواعي العز والعظم

وعـندما يقـوم المعـلمون بواجبهم، وتهـتم الأمة بتربية الأجيال، ويتعاون الجميع مـن أجـل ذلك، يبزغ فجر جديد لأن مستقبل الأمـة، سيقوم على أكتاف جيل عرف طريقه، وتسـلح بالعـلم والإيمان، فمن المدارس شع النور، وانبثق الضياء:

مـن هـنا ينبـثق الشعب منارا
مـبدعاً فالـليل يـنداح نهـارا
مـن هـنا يطلع فرسان الضحى
حـلماً حـلواً عـلى الـليل أغارا

إن الأطفـال هـم أمـل الأمة وغدها المشـرق إن تـلقوا العـلم النافع ارتفعوا إلى المعـالي وكـانوا درعـاً يدافعون عن وطنهم وقيمه السامية، يقول شوقي في صغير تعلم:

فـرب صـغير قـوم عـلموه
سـما وحـمى المسـومة العرابا
وكـان لقومـه نفعـاً وفخـراً
ولـو تـركوه كـان أذىً وعابـا

ويـنظم الشاعر (محمد صالح علوش) قصيدة يبيّن ما حققه المعلم فيه وفي أقرانه:

علمتـنا شـتى المعـارف سقتَها
عـبر الـدروس وكلـنا إقـبال
ففـتحت آفـاق الحيـاة أمامـنا
وبـذي المآثـر تعظـم الأفعـال
يا من يصوغ من الصمود ملاحماً
تـروي جميـع فصـولها الأطفال
قـد أثمـر الغـرس الذي رويته
وغـدت له تحـت الغصون ظلال
فـارفع جبيـنك عالياً بين الورى
فخـراً فقـد كـبرت بـك الآمال

ويحدثـنا الشـاعر المعـلم (رضوان الحـزواني) عن أفعال تلاميذه، وما حققوه في ميادين الحياة بعد أن سقاهم من عصير روحه فيقول:

أسـقيتهم قطـر الجـبين فأزهروا
وعصرت روحي فيهم فاخضوضروا
زرعـوا الليالي العابسات مشاعلاً
صنعوا الحياة من الجراح وعمروا
مـن كـل شـبر منهم لي كوكب
تشـدو بـه الدنيـا وتزهو الأعصر

ولكـي يقـوم المعلم بدوره ويواصل مسيرته السامية في تربية الجيل ويحقق الآمال يجب أن يُرفعَ شأنُه ويحترم ويقدر ويعطى حقه كاملاً، يقول الشاعر محمد حمزة:

ولترفعوا شأن المدرِّس كي نرى
جيـلاً مـناه العيـش في الجنات
جيــلاً قويـاً صـالحاً ومـثقفاً
مـترفعاً عـن سـيئ العـادات

شغب التلاميذ ومعاناة المعلم:

إن التعـليم عمل شاق ومهمة صعبة، ويـزيد من متاعبه شغب التلاميذ وضجيجهم، ممـا يجعـل المعـلمين يشـكون، ويـرفعون أصواتهم بالشكوى بسبب ما يلاقونه من عنت الذيـن يعـلمون لا سيما إذا ضاعت جهودهم هباء لم تحقق ثمارها المرجوة، مما دفع بعض المعـلمين الشـعراء إلى تصوير هذه الظاهرة تصويراً دقيقاً فهم اقدر على ذلك من غيرهم.

إن الشـغب هـذا يؤثـر عـلى سير الدرس، فلا يصل المعلم إلى ما يريد من نتائج، فيخسـر الـتلاميذ، ويتراجعون في دروسهم، يقـول الشـاعر (محمد فهمي الحمدان) يصف الشغب والنتائج:

ليــس المعـلم هانـئاً أبـداً
ولو قد مارس التعليم شهراً في فتور
إذ كيـف يهـنأ من يصاحب صبية
طـول النهار ولا أقول مدى الشهور
فضـجيجهم دومـاً كأصـخب آلـة
لا يتعـبون مـن الزعيق من النفير

ويـتابع يصف لنا ما يلاقيه من الجيل من صدود عن العلم فيقول:

وأسـير في عرض الدروس بهمة
جـبارة تجـثو لهـا صم الصخور
وأظـن أنــي قـد بـرعت بهمتي
وصـنعت جيلاً يمتطي هول البحور
وأجيل طرفي في الوظائف كي أرى
جهـداً وكداً في تضاعيف السطور
فـأرى حمـاراً جاثمـاً فـي هيكل
لا يشـبه الإنسـان إلاَّ في القشور

وكذلـك الشـاعر السعودي (عبد الله سـليم الرشيد) يعتبر شغب التلاميذ وضجيجهم من الأسباب التي تؤدي إلى شقاء المعلم وتعبه يقول:

إذا ما دخلت الفصل حوقلت هامساً
ونـاديت يـا ربـاه كن خير ناصر
تلامـذة مـثل العفـاريت أجلـبوا
عـلي فمـن شـاد يـلغو ونافـر
وأحسـب أنـي بالـتلاميذ مـبدل
شـيوخاً كـبحر بـاللآلي زاخـر
فألقـاهم مـن بعـد شـر عصابة
وإذا بصـياحي كـان صفقة خاسر

هذا الحال بالإضافة إلى متاعب أخرى، جعـل قسـم من بناة الأجيال، ينظرون للتعليم نظـرة سوداوية، عبروا عنها شعراً وبثوا من خلالهـا أحاسيسهم ومعاناتهم، وأغرق بعضهم فـي التشـاؤم حـتى قالوا: إن المعلم نهايته الانـتحار بسـبب مـا يعـانى. يقول الشاعر

(إبراهيم طوقان) يرد على الشاعر (أحمد شوقي) الذي رفع من شأن المعلم والتعليم:

شوقي يقول وما درى بمصيبتي
(قم للمعلم وفه التبجيلا)
أقعد فديتك هل يكون مبجلاً
من كان للنشء الصغار خليلا

ثم يقول عن نهاية المعلم كما يراها:

لا يعجبوا إن صحت يوماً صيحة
ووقعت ما بين البنوك قتيلا
قل يا من يريد الانتحار وجدته
إن المعلم لا يعيش طويلا

ويقول الشاعر (محمد سعيد الكيلاني) الذي قضى عمره في التدريس حتى أحيل إلى التقاعد:

لا تلوموا معلماً إن تداعى
بعد طول التدريس والإعياء
إنها جلطة وأرحم يوماً
من دخول التعليم وقت الغلاء

إن الشاعر إبراهيم طوقان لم يكن محقاً في رده على شوقي لأن شوقي يعلم ما يلاقيه المعلم لكنه نظر إليه نظرة المعلم الذي يحمل رسالة العلم التي هي أشرف رسالة ولم ينظر إليه نظرة معلم موظف يعاني من عمله.

ولئن سئم بعض المعلمين من صحبة الدفاتر والصبية العفاريت فإن بعضاً منهم، عصب على جرحه، واستمر في جهده صابراً محتسباً، لأن عزاءه - برغم عنائه - في أطفال بعمر الورود، سيشتد ساعدهم ويسمو شأنهم ويبنون حضارة الأمة ومجدها.

يقول أحدهم:

سنعصب الجرح مهما اشتد مبلغه
ولينهض الجيل ولتنهض بنا العرب
درب الكفاح قد اختارته أنفسنا
ولن نحيد ولم نمنن بما نهب

والشاعر (رضوان الحزواني) يعتبر عزاءه القلم والدفتر، وبناء النفوس على الفضيلة بالرغم من جحود الآخرين لفضله، فيقول في قصيدته "الشمعة المنسية":

قلم عزائي في الحياة ودفتر
إن كان فضلي في الورى لا يذكر
إن كان يغفلني الزمان بجهله
فالعلم يذكرني وهذي الأسطر
حسبي من الدنيا الكفاف وأنني
أبني المعالي في النفوس فتزهر

ويقدم لنا المعلم الشاعر (محمد باكير) في قصيدته "ما ضاع عمري" بأنه معتز برسالته ويعتبر المعلم أكرم من مشى على الأرض لأنه يحمل مشعلاً وضاء، ولو خيروه بين أن يكون معلماً يربي الأجيال، أو ملكاً يحكم الرعية لاختار الأولى:

قل للمعلم: أنت أكرم من مشى
فوق التراب بعفة وتكرم
ستظل في ليل العروبة مشعلاً
يهدي خطانا للسبيل الأقوم
لو خيروني أن أكون معلماً
أو قيصراً للبست ثوب معلم

وصايا التلاميذ:

إن الشعراء لم يكتفوا بوصف التلاميذ في مدارسهم، وإظهار العلاقة بينهم وبين معلميهم وأصدقائهم، بل وجهوا لهم النصائح التي انصبت نحو التحلي بالأخلاق والتزود بالعلم، قال الشاعر (خضر عكاري) في قصيدة "قالت لنا المعلمة":

قالت لنا المعلمة..
تيقظوا.. وثابروا..
على طريق العزم والأمان
هذي يدي
أمدها.. إليكم..
بالعطف.. والحنان
قالت لنا المعلمة:
تسلحوا.. بالعلم والعرفان
محبة.. الإنسان!

ولقد دعا الشاعر (مصطفى عزوز) من تونس في قصيدة قدمها لأبناء المدارس إلى التمسك بالفضيلة، ونبذ الرذيلة والتسلح بالعلم وترك الجهل فأنشد يقول:

كن في حياتك للفضيلة جارا
وامسح عليك من الجهالة عارا
واحمل على الجهل البغيض مهدماً
حتى تشاهد صرحه منهارا
وعليك بالدرس الحثيث منقباً
من كل فن خذ له مقدارا
واسهر فإن الحظ معقود لمن
باتوا الليالي بالدروس سهارى
العلم مفخرة الزمان فلذ به
واجعل نصيبك في الحياة فخارا

لقد رصد الشعراء حياة التلاميذ في المدارس في الصف وخارجه، ونسجوا حولها قصائد شعرية مباشرة فيها المحبة والود والحرص على أمل الأمة وغدها، وفيها الحس بالمسؤولية، كما وصفوا الأطفال في المدارس بصفات جميلة، فقالوا عنهم: زنابق وخزامى وأزهار ونعتوهم بالثمار الطيبة، وأنهم لبنات يبنى بهم صرح الوطن، وقالوا عنهم إنهم الأشبال والنشء الذي يسقيه المعلمون من روحهم وأفكارهم ما يسمو به إلى المعالي. إلى جانب ذلك رأينا المعلمين الذين ينظرون للتعليم نظرة سلبية لما فيه من متاعب يصفون التلاميذ بالغباء والبلادة، لأنهم لا يفهمون، وأكدوا أن أعصاب المعلم تكاد أن تتقطع من شغبهم.

لقد قدم الشعر كثيراً من الجوانب التي تتعلق بالتلاميذ، ولكن يبقى في المجال متسع لقول الشعر الجميل في زهرات المدارس، من زوايا متعددة، فهل من قصيدة عن نظامهم ومظهرهم وجمال محياهم ولباسهم الموحد؟ وهل من قصيدة عن ساعة الامتحان وانهماك التلاميذ فيه؟ وما يحمل الامتحان من دلالات ورموز في حياة الصغار والكبار؟

وربما قيل في ذلك ما قيل ونتمنى في يوم من الأيام أن نعثر على قصائد أجمل، فإن التغني بالأطفال أشد سحراً من التغني بالأشجار والأنهار والأطيار لأن ما في الطبيعة من خيرات وجمال خُلِقَ من أجل عيون ابن آدم..




بيادر عشق

شعر: حسان الصاري

لأنـــك حـــلمي الآتـــي عذابـــاتي.. هـــناءاتي

رحيـــلي عـــبر أوردتـــي ضـــياعي.. جمـــر آهـــاتي

ونشـــيدي إن أردت الـــبوح أخـــباري نـــبوءاتي

أســـافر فـــي مـــدى عيـــنيك أقطـــع حـــبل مرســـاتي

شـــراعي همـــس أغـــنية وبحـــري فيـــض دمعـــاتي

وليـــلي شـــعرك الغـــافي أبعـــثر فيـــه نجمـــاتي

وبـــدري غـــاب مـــن زمـــن ووجهـــك بـــدر ليلاتـــي

*　　*　　*

أغـــني تخشـــع الدنيـــا عـــلى تـــرجيع أنّـــاتي

وأصـــمت تســـقط الأقمـــار تســـكن دفء راحـــاتي

أهدهدهـــا بقافيـــة وأمطـــرها.. بقـــبلاتي

وأســـقيها ســـلاف الحـــب مـــن دنـــي وكاســـاتي

وأســـكنها شـــغاف القـــلب فـــي ذرات ذراتـــي

وأحميهـــا بهـــدب العيـــن أدعوهـــا حبيـــباتي







هي الباقي من الدنيا هي الماضي هي الآتي
لأني صغت عالمها فنوناً من صباباتي
تركت يدي تبدعها جنوناً من غواياتي
فبعض صنع خالقها وبعض صنع لذاتي
وبعض وفق ما تملي على الأيام أوقاتي

* * *

فأحياناً أشكلها أزاهيراً.. بجناتي
وأحياناً عصافيراً تسافر في مداراتي
تحوم حول مملكتي تنقر بعض حباتي
وتترك بيدري يشكو ضياعي وانكساراتي

* * *

وأحياناً ملائكة تردد طهر دعواتي
تدف فتغرق الأرجاء في دنيا ابتهالاتي
تسابيح وأوراد صداها حبي العاتي

* * *

رأيتك قبل أن تأتي رسمتك في خيالاتي
صنعتك من نسيج الوهم أمطاراً لغيماتي
وجئت فكذبت عيني ظنوني وافتراءاتي
لأنك فوق ما رسمت تهاويم اشتهاءاتي
رسمتك في حنايا الروح ثم كسرت فرشاتي




اختلاطات

بقلم:
م. كمال راغب الجابي

المسافة بين الهوى والهوس ليست بعيدة كما يقول العارفون. والجدار القائم بين الهيمان والهذيان أوهى بكثير مما يظنّ الكثيرون، وهو أشبه ما يكون بخيوط رفيعة رهيفة أو شعيرات رقيقة دقيقة تفصل أو تصل بينهما كما يقدّر المنظرون، وسماكة هذه الخيوط أو الشعيرات ومرونتها تتفاوتان حسب تصورهم بتفاوت الاستعداد المستند إلى الفطرة الذي تلعب الظروف البيئية دوراً كبيراً في تعظيمه حيناً أو تحجيمه في أغلب الأحيان. إذ يبدو أنهما تميلان إلى الرقة والرهافة كلما كان صاحبها حساساً سريع التأثر، وإلى الثخانة والقساوة كلما كان إحساسه متلبداً وتأثيره متجمداً.. وانقطاع الخيوط والشعيرات أو تهشمها، على اختلاف تركيبها وتنوع الظروف المحيطة بها، لا يتم فجأة إلا نادراً وفي الحالات التي يتعرض الإنسان خلالها إلى صدمة مباشرة قوية تمارس بوساطتها أعمال الشدِّ والجذب عليها بشكل لا يسمح معه لمراكز المقاومة الأخرى لديه بالتدخل في الوقت المناسب لإنقاذها. لكن الشائع أن يحصل ذلك بصورة تدريجية، نتيجة عوامل نفسية ضاغطة، تمارس تأثيرها على شكل صدمات مختلفة الشدة تتراكم في مراكز الإحساس المختلفة على مدار فترات طويلة من الزمان، وتعمل خلالها على تمزيق الخيوط والشعيرات المؤلفة لذلك الجدار واحداً إثر الآخر. مما ينجم عنه التخليط بمحتوياتها بطريقة مقاربة لتلك التي تقوم فيها الكائنات الدقيقة بمهاجمة المراكز العضويَّة مسبِّبة التخريب بموجوداتها، وتكون النتيجة في الحالتين ظهور اضطرابات تؤدي إلى إفساد المناطق المهاجمة وتعطيل حسن أدائها لمهامها، في حالة عدم إمكان المحافظة على سلامتها عن طريق إيقاف تأثيرها ودرء تخريبها..

وكما تتنوع الكائنات الدقيقة المهاجمة للمراكز العضوية وتتفرع إلى بكتريا وفطر

وفيـروس وغيـرها. تتنوع العوامل النفسية الضـاغطة على مراكز الشعور وتتفرّع بشكل كـبير يعـود تصـنيفه وتبويبه وتتبع تفاصيل امـتداداته واستطالاته إلى الدراسات المتعمقة لأصحاب الاختصاص بينما لا يتعدى ما سنقصه من حكايات في هذا الحديث نماذج يمثل بعضها النـتائج التي يفرزها إحباط التطلعات و الآثار الـتي تخـلفها عدم القدرة على تحقيق الذات، وتمثل الأخرى حالات خاصة اقترنت بمحاولات أوليـة لتلمس بعض معالم المسالك الوعرة في عـالم الروحانيات. ويمكن وضعها جميعاً تحت عـنوان اخـتلاطات لاضطراب شخصية بعض ممثـليها واهـتزاز تصرفاتهم في الأدوار التي يؤدونها فيها.

* * *

وبطـل الحكايـة الأولى طالب من بلد عـربيّ مجاور كانت تصرّفاته تدل على رفضه للنظم المتبعة في العالم والمنتشرة بين جنباته وتشـير إلى تمـنيه تعديل أو إلغاء ما هو قائم مـنها وتبـنيه لإسلوب توضيح وإجلاء ما هو غائم فيها واقتراح بديل لها.

وكان قد تعرَّف عليه في بداية دراسته بألمانيا و خلال إقامته في إحدى الدور السكنية الكـبيرة الـتي خصصتها حكومتها لاستضافة الهاربين من الجانب الشرقي لجدار برلين قبل انهيار المجتمع السوفيتي و توحيد الألمانيتين، ريثما يتمكنون من تأمين العمل والسكن الملائم لهـم، كمـا أنهـا كانت تسمح في حال وجود غـرف شاغرة باستضافة غيرهم فيها وخاصة الطلاب الجدد القادمين من مدن أو دول أخرى إلى أن يتمكنوا من تأمين سكن أفضل.

وقد قابل ذلك الطالب مرَّة واحدة فقط في أثناء إعداد كل منهم لطعامه وتناوله له في المطـبخ المشترك للجزء الذي خصّص لإقامة الطـلاب فـي تـلك الدار، أعلمه خلالهما أنه يـدرس اللاهـوت في إحدى الجامعات الكبيرة الـتي تقـع في شمال البلاد، وأنه حضر حديثاً إلى مدينتهم للاطِّلاع على الأبحاث الجديدة التي تجـري في جامعتها للإفادة منها في موضوع إعـداد أطروحـته لرسـالة الدكتوراه المتعلقة بـنقاط الاتصـال بين الأديان والعقائد السائدة والبائدة. كما أخبره أنه سيقيم خلال وجوده في المدينة بتلك الدار.. ولاحظ خلال تبادله الحديث مـع ذلـك الطالب حدَّة نظراته وقسوة نبراته وشـدّة انفعالاتـه. كمـا أحس بعد فترة ليس بالطويلة من بدء الحديث معه بغرابة تصرفاته مـن جهة، وبتطرف آرائه ومعتقداته من جهة أخرى، خصوصاً بعد أن فاجأه بسؤال بدون أية مقدمات عن رأيه بالأهداف المعلنة والخفية في نظـريّة تناسخ الأرواح.. ولمّا أجابه بعد قليل مـن الـتفكير بأن معلوماته محدودة حول هذه الـنظرية وأن مـا يعـلمه بشأنها أنها تشكل الأسـاس فـي عقيـدة تدين بها بعض الأقوام الهندية، وتنصّ على أن الروح لا تفنى مطلقاً، بل تحلّ روح الإنسان المتوفى في مولود جديد لـتعيد دورة الحيـاة. ظهـرت على أساريره علامـات عـدم رضاه عن هذه الإجابة العامة والسريعة وانبرى بحماس واندفاع مهاجماً إياه من جهة، ومصححاً لها ومكملا إياها من جهة ثانيـة قائلا: بأن هذه الإجابة لا تدل على سعة ثقافـة صـاحبها وبأنـه يجدر به أن يعلم بأنّ جذور هذه النظرية تعود إلى العقيدة البراهميّة. وأن المـنادين فيهـا أرادوا من ورائها هدفين محدديـن، أولهمـا تحفيـز الناس على القيام بأعمـال الخيـر، وثانيهمـا تكـريس الطبقية فـي المجـتمع عـن طريق عدم السماح لمن ولـد مـنهم فـي طبقة معيّنة بأن ينتقل خلال حياتـه إلى طـبقة أعلى مهما كانت مواصفاته ومميـزاته والأعمـال الـتي يقوم بها خلالها، وتحـدّد إمكانية هذا الانتقال بعد موته حصراً، فـي حـال قيامه بأعمال فاضلة في أثناء فترة حياتـه إذ يمكـن في هذه الحالة فقط أن تحل روحـه في جسد إنسان مولود حديثاً من طبقة أعـلى. أما في حال قيامه بأعمال فاسدة خلال

حياتـه، فـإن روحه تنتقل بعد موته إلى طبقة أدنى.

وأن روح الإنسـان الصـالح تـرتفع باسـتمرار مـن طبقة إلى أخرى في الولادات المتـتابعة مـادام صاحبها يقوم بأعمال خيِّرة لتصـل إلى مرحلة السعادة القصوى أو(النير فانـا) وهي المرحلة التي تتخطّى الألم والهمّ والواقـع الخارجي، وأما روح الإنسان الطالح فهـي تنخفض باستمرار في الولادات المتتابعة مـادام صـاحبها يقـوم بأعمال شريرة وعند وصـولها إلى درجاتهـا الدنيـا تنـتقل إلى الحيوانـات حسب أحجامها وأنواعها. باعتبار أنّ الحيوانـات مرتـبة فـي طبقات حسب هذا التصـور أيضـاً وكلما كبر حجم الحيوان كلّما كـانت طبقـته الاجتماعية أعلى من الذي أقل حجماً منه...

وأضاف بأن مبتكري هذا النظام قسّموا الـناس إلى عـدد محـدد من الطبقات لإمكان تحديـد موقـع كـلٍ مـنهم فيها ومنعهم من تجاوزهـا حيـث وضـعوا الكهنة على رأسها وجعـلوهم يخـرجون من رأس "مانو" الإنسان الأول الذي خلقه "البراهما" ثم وضعوا الملوك، ثم قواد الجيوش، ثم أصحاب المهن المختلفة، الـتي حدّدوا لها درجات خاصة أيضاً، ثم طبقة المنبوذين والتي تشكل السواد الأعظم وجعلوها تخرج من قدمي آدمهم الذي اسمه "مانو"..

ولـدى انتهائه من هذا التوضيح طرح عليه سؤالاً آخر ، يستفسر فيه عن رأيه بمدى عدالـة هذا النظام وشموليته . فأجابه بعد قليل مـن الـتروي قائلاً: بأنه لا شك أن هذا النظام يفـتقر إلى العدالـة لأنـه يفرض على الناس الـبقاء طيـلة حياتهم في طبقة معينة دون أن يسـمح لهـم بمغادرتهـا مهما كانت الأسباب والظـروف، وهـو بذلـك لا يعترف بالنشاط الإنساني والجهد البشري الذين يجب أن تكون محصلتهما تحسين الأوضاع واستمرار الترقي خلال فترة الحياة دون وجود حواجز أو موانع، وأما من ناحية شموليته فإن محدودية انتشاره فـي بعـض دول جنوب شرق آسيا وقليل من الـدول الأخرى لأصدق دلالة على عدم قابليته للانتشار وعدم صلاحيته للتعميم.

ولكن ذلك الطالب سارع لمقاطعته قائلاً بـلهجة قاسـية وصريحة ومباشرة لا تعترف بالمـرونة أو الدبلوماسـية قائلاً: بأن نظرته للموضـوع هـي الضـيقة وأفـق تفكيره هو المحـدود وليـس ذلـك الـنظام لأن الـنظرة الشـمولية فـي هذا المجال ينبغي أن تنسحب على الزمان وليس على المكان، بمعنى الزمان اللامحـدود بيـن خلق الكون ولا نهائيته، كما يـنـبغي أن ينظر إلى العدالة بمنظار هذا الزمان أيضاً وليس بمنظار حياة الإنسان المحددة بين لحظـة ولادتـه ولحظة وفاته.إذ يمكن من هذا المـنطق اعتبار فكرة هذا النظام بمثابة تصور للشـكل الأمـثل لتطـبيق العدالـة على وجه الأرض، لأنـه لا يمكـن تمـثل صـفة العدالة العـلوية في الحياة الدنيا مع وجود الكثير من الـناس الذيـن يعـانون من الألم أو الفقر أو البشـاعة أو أي نقـص آخر بمختلف أشكاله وصـوره ووجـود الكثيرين من غيرهم الذين يتمتعون بنقيض هذه الصفات في الوقت ذاته. ولكـنه يمكن قبول ذلك حين نتصور أن أرواح هـؤلاء الناس أنفسهم مرّت خلال أزمنة سابقة وستسـتمر خـلال أزمـنة لاحقـة عن طريق تناسـخها وتناقـلها بين أجساد أخرى بحالات مغايرة تتدرّج بها من أدنى درجات الألم والفقر والبشاعة أو أيّ نقص آخر إلى أسمى درجات الـلذّة أو الغـنى أو الجمـال بحيـث تقـترب باستمرار نحو الكمال. وعندما تصل إليه تصبح فـي مرحلة الخلود أو مرحلة السعادة المطلقة أو "النير فانا" أو النعيم أو الفردوس أو ملكوت الله أو الجـنة أو أي تسمية أخرى.. ثم استمر قائلاً وبلهجة حازمة وواثقة في آنٍ معاً أنّ هذا لا ينفي الخطأ الكبير الذي وقع فيه مبتكرو هذا الـنظام بإبقـاء الـناس خلال فترة حياتهم في طبقة واحدة وعدم السماح لهم بمغادرتها خلال

هـذه الحيـاة والـتي هدفـوا من ورائها إلى اسـتغلالهم بل واستعبادهم. وأنهم لو تجاوزوا هـذا الخطـأ لعمم هذا النظام نفسه في أنحاء المعمورة ولأتاح التصور الكامن فيه لكثير من المفكرين تفسير الأمور الغيبيّة بشكل أفضل من التفسـيرات اللاحقــة.. ثمّ تابع حديثه بحماس وجديــة قـائلاً: بأن هذا الخطأ القاتل هو الذي أتــاح للمـنادين بالعقيدة اليهوديّة التي انبثق عـنها العقــائد اللاحقــة بتبني نظرية "الشعب المختـار" والـتي اعتـبر أصـحابها أنفسهم بموجـبها كهـنة العـالم بعد أن استمدوا هذه الفكـرة من ذلك النظام وطوّروها ثم أودعوها كتـبهم المقدّسـة بـأن نسبوا الآخرين الذين يشـكلون باقي أجزاء الجسم والقدمين تحديداً إلى غيره..

ولقـد أعجبه هذا التحليل وأثار هواية حبِّ الإطلاع لديه، وأراد استمرار سماع آرائه حـول هذا الموضوع لولا أن قطع ذلك الحديث دخـول أحد زملائه المصريين الذي كان يقطن فـي الغـرفة المجاورة لـه إلى المطبخ للقيام بإعداد طعامه. إذ انبرى ذلك الساكن الجديد إثر فـترة الـتعارف مباشرة وخصوصاً عندما علم بـأن ذلك الزميل يقوم بدراسة الرياضيات إلى توجيه سؤال مباشر وصريح إليه استفسر فيه عن رأيه بالتوحيد والثنوية والتثليث من وجهة الخيـر والشر ويبدو أنّ ذلك الزميل المصري فـوجئ بطـرح السؤال عليه وخشي من مغبة إبـداء تـأييده الصـريح لأحـد البدائل الثلاثة المطـروحة. فقـال بكـثير مــن الدبلوماسية بـأنّ جميـع هذه البدائل مسميات لشكل واحد مـن التصـورات يسـتند إلى التوحيد وينبثق عــنه. وإن الشـكلين الآخـرين لا يخـرجان عن تطبيقات عملية لهذا الشكل تمارسها بعض العقـائد حسـب تـأويلات إتباعها. وأنّ جميع هــذه الـبدائل عـلى تعـدد مسـمياتها تدعو إلى الخيـر وتــنهي عن الشر لذلك فإنها تتفق جميعاً بالنسبة لهذه الوجهة...

ولكـن السـاكن الجديد لم يكتف بهذه الإجابـة الـتي نعتها بأنها عامة لا تسمن ولا تغـني من جوع. وأنها قد تنطبق على التوحيد والتثـليث ولكنها لا تتعرض إلى الثنوية. وإنّ مثل هذه الإجابة يمكن أن تصدر عن أيّ إنسان عـادي ولكـنه يسـتغرب صدورها عن طالب جـامعي يقـوم بدراسة الرياضيات التي تعتبر أكـثر العـلوم رقياً بحيث يكون دارسها مؤهلاً لتحـليل أيّ موضـوع يطرح عليه مهما كان الفـرع التخصصّـي الـذي ينتسـب إليه هذا الموضوع.. ثم أخذ بعد هذه المقدمة الهجومية يشـرح وجهة نظره بالنسبة للسؤال المطروح قـائلاً: بأنه لا يمكن للإنسان العاقل أن يتصور بـأن تكون قوة واحدة مصدراً للخير والشرفي آن معـاً.. لأن ذلـك فيـه افتئات على العدالة وخلط في مفاهيمها. وأنّ الأقرب إلى الفهم أن تكون هنالك قوة مسؤولة عن الخير تدعو إليه وتعمـل على حمايته وقوة أخرى مسؤولة عن الشـر تحـاول أن تنشـره وتنصره. لذا فإن التصورات الثنوية للقوة العلوية التي نادت بها الزرادشـتيّة منذ القرن السابع قبل الميلاد هي أقـرب إلى تحديـد مسبّبات واضحة لمفهومي الخير والشر من غيرها. لأن أتباعها يعتقدون بوجود قوتين علويتين وليس واحدة فقط.

أولاهما يمثلها "أهورا مزده" أو "هرمز" إلـه الخير الذي خلق النور والسعادة والإنسان والجـنة. والـثانية يمثلها "أهرمان" إله الشر الذي خلق الظلام والتعاسة والشياطين وجهنم. كما يعتقدون بأن الصراع كان ولا زال مستمراً بيـن هـاتين القوتين وستكون نهايته انتصار وتغـلب "هرمـز" على "أهرمان" فيقضي على الشـر، ويسـود الخير، ولا يبقى في العالم إلا ربّ واحد يظلّ الناس على اتصال وثيق به.

لذلك ينبغي على هؤلاء الناس مساعدة الإلـه "هرمز" للتغلب على الإله "أهرمان" تغلباً كـاملاً، عـن طريق المحاربة بجانبه بقيامهم بالأعمـال الخيّـرة وتجنبهم للأعمال الشريرة.

فيزداد بذلك عدد جنوده ويتغلبون في النهاية على جنود "أهرمان".

وفي اللحظة التي كان فيها الساكن الجديد يقوم بالمتابعة والزميل المصري يستعد للرد، دخل زميل يوناني وألقى بالتحية فانبرى ذلك الساكن إلى تحيته أيضاً وتعريفه بنفسه وقابله اليوناني بالمثل ذاكراً بأنه يقوم بإجراء دراسات عليا في علم الاجتماع. مما جعل ذلك الساكن يقطع الحديث مع الزميل المصري بدون أيّ استئذان ويبادر الزميل اليوناني بسؤال بلغة ألمانية على درجة كبيرة من الإتقان والجودة استفسر بموجبه عن رأيه فيما إذا كان القانون هو من اختراع الأقوياء من الرجال ليقيّدوا به الضعفاء ويحكمونهم عن طريقه، أم أنّ الأخلاق هي من اختراع الضعفاء لكبح وتقييد الأقوياء منهم. وبينما كان الزميل اليوناني يتخبط في الإجابة مستشهداً بسقراط وأرسطو حيناً، وبروسو ونيتشه وسان سيمون حيناً آخر، انسحب هو إلى غرفته ليستعدّ للذهاب إلى معهده بعد أن أنهى تناوله لطعامه الذي شغلته عنه تلك الأحاديث الشائعة، وذلك الحوار من طرف واحد، الذي كان يديره الساكن الجديد بحنكة وحدّة..

وخلال اليومين التاليين لم تتح فرصة اللقاء به في مطبخ الدار، بل سمع من بعض زملائه الساكنين فيها أنهّ كان لا يفوّت فرصة لسؤال من يجتمع بهم فيه أسئلة مختلفة بمواضيع متباينة. بعضها ينصبُّ حول المعتقدات وأخلاقياتها على شاكلة تلك التي طرحها عليه وعلى بقيّة زملائه في اليوم الأول الذي اجتمعوا به فيه في ذلك المطبخ. وبعضها الآخر يركز على أمور عامّة أغلبها فلسفي أو يتعلق بعلم الاجتماع كذلك السؤال الذي يستفسر عن أيّ من الأشياء أجدر بالاهتمام في العالم العدالة أم الحقيقة أم الجمال. أو ذلك الذي يستوضح عن أفضل أسلوب للحدّ من الإفراط في الفقر والإفراط في الثروة. أو ذلك الذي يسعى إلى البحث عن مكمن الفضيلة ويحاول معرفة نصيب الحبّ والقوة والعقل فيها. أو ذلك الذي يستقصي فيما إذا كان الضمير هو صوت الله أم أنه الخوف من الشرطة أو ذلك الذي يتحرّى الفروق بين ممارسة الحرب والقيام بأكل لحوم البشر.. وأسئلة أخرى مماثلة كان بعض القاطنين في الدار يسر بها ويتمتع بسماع آرائه حولها، بينما كان البعض الآخر ينفر منها ويبدى امتعاضه لذلك الأسلوب القهري الذي يفرضه عليه بشأنها وكان أكثرهم نفوراً طالب ألماني أبدى ضيقه وتأففه من ذلك الساكن الجديد. ولم يظهر رغبته في الدخول بحوار معه عند طرحه أحد الأسئلة عليه، مما دفع ذلك الساكن لأن ينعته بالجهل والانعزالية.

وجعل ذلك الألماني يردّ عليه واصفاً إياه بالادعاء والوحشية. وقد نشبت معركة كلامية بينهما بصوت مرتفع تبادلا خلالها العديد من الشتائم. حضر على أثرها كثير من الطلاّب، لوح خلالها الساكن الجديد بسكين كبيرة مسننة كان يقطع الخبز بها خلال المشادّة وأشار بها إلى ذلك الألماني بما يشبه التهديد، وهو يشتمه ويصرخ بوجهه بانفعال شديد.

مما جعل غريمه يرد عليه بأنه مخبول ومجنون، ويندفع مباشرة إلى إدارة الدار ليخبرها بأنه هدّده متعّمداً بالسكين، وأنّه تصرّف معه بشكل وحشي ومختلف..

وقد قامت تلك الإدارة بالتحقيق السريع بالموضوع في الوقت نفسه الذي كان فيه ذلك الساكن الجديد قد فقد البقيّة الباقية من أعصابه. وأخذ يكيل الشتائم وبصوت مرتفع وحاد ليس لذلك الطالب فقط بل للشعب الألماني برمّته. وأخذت علامات تمزق خيوط وشعيرات الجدار الفاصل والاختلاطات الناجمة عن ذلك تظهر لديه وتبين. ممّا دعا الجهات المسؤولة في تلك المدينة إلى اتخاذ قرار بإعادة إلى

بلده، بعد اتصالها بالسفارة التي يتبع لها وبالجامعة التي كان يدرس فيها، ومعرفتها بأنَّه كان يعاني من صراع نفسي حاد وضع على أثره بإحدى المصحات العقلية فترةً من الزمان..

وشكلت إدارة تلك الدار لجنةً من مندوب منها ومندوبين من الطلاب كان هو أحدَهُمـاً، روعي ضمَّه إليها لكونه عربي الجنسية. وكانت مهمة تلك اللجنة جردَ حاجيات الساكن الجديد ووضعها في الحقائب الخاصة بها لإرسالها معه عند إعادته إلى بلده. واسترعى انتباهه خلال قيامه بمهامه في تلك اللجنة، لدى جمعه لأوراقه التي كانت متناثرة على المكتب الموجود في الغرفة التي كان يقيم فيها، دفتر كبير الحجم أنيق المظهر معتنى به بشكل ملفت للنظر. وتصوَّر في البداية أنه ألبوم للصور. ودفعه الفضول إلى تقليب صفحاته حباً في الاطلاع. لكنه فوجئ باحتوائه على كتابات مرتَّبة بمقاطع منمقة ومصاغة على شكل تعليمات أو بلاغات قام ذلك الساكن بإعدادها لإصلاح الأوضاع الفاسدة والأحوال المتردية في العالم من خلالها. بعد أن تخيل بأنه قد منح قدرة فائقة وقوة هائلة عمد إلى توجيهها لإزالة وتقويض ما هو مخرب وضار برأيه على هذه الأرض، وفرض ما هو نافع ومفيد عليها، لإخراجها من حالة التسلط والاستغلال التي يمارسها قلة من أشرارها وإعادتها إلى حالة التوازن والانسجام التي يفترض أن تسود عليها، بهدف أن ينعم جميع سكانها بالراحة والسعادة والأمان.. وعلق في ذاكرته خلال التصفُّح السريع لما ورد في هذا الدفتر عدد محدودٍ من الأفكار الواردة فيه كتلك التي تتعلق بتدمير وتعطيل جميع الأسلحة النارية ابتداءً من الأسلحة الفردية وانتهاءً بأسلحة الدمار الشامل وعدم السماح بانتاجها، والاكتفاء بأسلحة المواجهة التقليدية الفردية وحصر حيازتها واستخدامها في الجهة المسؤولة عن إقرار الأمن وتوفير الطمأنينة. وتلك التي تتعرض لتنظيمات إقامة مصرف عالميٍّ توضعُ فيه قيمةُ صافي إنتاج ثروات باطن الأرض. وتُحدِّد أسس إعادة توزيعها بالعدل على مختلف مناطق العالم لإقامة مشاريع إنتاجيَّة تهدف إلى رفع المستوى المعاشي لسكانه. وتلك التي تتعامل مع إلغاء الأنظمة الاقتصادية والسياسية القائمة في المعسكرين العملاقين آنئذ واقتراح أنظمة بديلة تستندُ على الغاء التكتلاتً الكبيرة وتفتيتها، وتقزيمها وتحجيم عناصر تكوين القومية بعدم السماح بالارتباط في الأرض لفترة طويلة. وتسهيل الانتقال بين مختلف مناطقِ العالم بعد توفير فرص العمل المناسب للجميع، وتوحيد اللغة والعملة بغرض تدجين المشاعر وتهجين المشاكلِ..

وساورته رغبةٌ شديدة بالاحتفاظ بهذا الدفتر، ولكنه شعر بأنَّ هذا ليس من حقه واكتفى بالاطلاع السريع على ما ورد فيه ثم قام بوضعه مع بقية كتبه وأوراقه في صندوقٍ كبير وهو يردِّدُ في سريرته سؤالاً طرحَهُ على نفسه بالشكل الذي كان ذلك الساكن الجديد يطرحهُ على الآخرين مستفسراً فيه فيما إذا كان هنالك خلطٌ فعلاً في رأسه خلال الحوار الذي كان يطلقُ فيه تلك الخواطر، وخلال تدوينه للنصوص التي أصدر عن طريقها تلك الأوامر؟ أم أنَّ الخلط مقصودٌ من الآخرين ومردودٌ عليهم؟.

* * *

وأما الحكاية الثانية فتتطرقُ إلى منحىً آخر تلعبُ فيه الاختلاطات دورها في عالم اللاوعي أكثر منها في عال الإدراك. وهي تدخل باعتبارها تنطوي على كثيرٍ من الجوانب غيرِ المفهومة في عالم الروحانيَّات الذي لايزالُ عالماً غامضاً مجهول الأبعاد.

ولقد شدَّ انتباهه إلى هذا النوع من الاختلاطات سماعُه لمحاضرةٍ ألقاها عميد

أحـدى كليات الطب التي تختصُّ بصحة ذوات الأربـع في الجامعة التي درسَ فيها في أمِّ دنيا ذلـك الزمان، طرحَ من خلالها بعض الدراسات والآراء في مواضيع نفسيَّة يبدو أنه كان شديد الاهتمام بها عظيمَ الشغف يتتبعها. ومما ذكره فـي تـلك المحاضـرة أنَّ الأرواحَ على أنواعٍ ودرجـات بعضُها نادرة الوجود خلق أصحابُها للزعامة والقيادة، لأنَّها غير محدودة القوة ولا متـناهية السطوة، لا تحدُّ من اهتماماتها قيود، ولا تحـول بيـنها وبين تحقيق غاياتها سدود، تكـاد لا تطيـقُ أن تـتعايش مع الأجسام التي توجـد فيهـا، وكـأن بها أنفاً أن تسكن اللحم والعظم وبعضها الآخر وجودها قليل وأصحابها مؤهلون لاحتلال مراتب متقدمة في الحياة لأن أرواحهم تتمتَّع بصفة المبادرة والمبادهة على درجـات مـتفاوتة، ولأنَّ عزيمـتهم تميل إلى القوة، وتنحو إلى السطوة، وترنو إلى القيادة، لكـنه يحدُّ من شدَّتها بعض الموانع والكوابح، الـتي تتدرَّجُ فيما بينهم، بحيث تكادُ تنعدمُ عند قـلة مـنهم تشكل قمةَ هذه الفئة، وتتزايد عند مجموعـة منهم تشكِّل قاعدتها.. وأما البعض الأخيـر الَّـذي يشكِّل السوادَ الأعظم من البشر فأرواحُ أصحابه تفتقر إلى صفة الإقدام، وتفتقدُ ميـزةَ الاقـتحام لذلـك فإنها تميل إلى سرعة الانقياد، وسهولةِ الانصياع، لأنَّ عزيمةَ أفراده عاديـة، وتطـلُّعات أغلـبهم تبعدُ عن النزعة المـثالية، واهـتماماتهم تنحصـرُ في الأمور الحياتيّـة. لـذا فـإن قـوَّةَ أرواحهم محدَّدة، وسطوتها مقيَّدة، ورغبتها في القيادة مبدَّدة..

وأضـاف المحاضـرُ بأنَّ الأرواح ذات القوّة المتناهية الشدّة تفرضُ وجودها وتمارس سـيادتها مهما ثارت في وجهها العواصف دون أن ينتابها الضعفُ أو تساورها المخاوف.

وأمـا التي تليها في القوة فقد تهدأ آناً وتسـتكين حيناً في حال معاكسة الظروف لها ولكـنَّها لا تلبثُ أن تثور وتفور لتحقيق ذاتها وممارسـة نشاطاتها.. وضرب على ذلك مثلاً بحادثة جرتْ مع سيدة لم تُتح لها ظروفها تعلّمِ القـراءة والكـتابة رغم أنَّ كانت قريبةً لصيقة بأمير الشعراء "أحمد شوقي" وزوجة لأحد كبارِ الأسـاتذة في كليّة آداب جامعة القاهرة. وذكر بـأنَّ زوجها كان يجدُ إثر استيقاظه من نومه في بعض الأيام قصائد شعريةٍ رصينة الأسلوبِ جـزلة العـبارة مكتوبةً بخطٍ جميل موضوعةً فـوق الطاولة في غرفة مكتبه دون أن يعرف كاتـبها أو يـدري كيفيّة وصولها إليها.. وأنه لاحـظ لدى مراقبته لتصرفات الموجودين في الـبيت أنَّ زوجـته كـانت تستيقظ في بعض الليالي خلال نومها وتتجه بحركة غير شعورية إلى غرفة مكتبه، وتقوم بإخراج بعض الأوراق من درج الطاولة التي تتصدَّره، ثم تمسك القلم بيدهـا وتقوم بإخراج بعض الأوراق من درج الطاولـة الـتي تتصدَّره، ثم تمسك القلم بيدها وتقـوم بالكتابة، رغم عدم معرفتها بها، وهي عـلى درجـة كبيرة من الشرود، وبين النائمة والصـاحية، وأنَّها تمكث على هذه الحالة فترةً مـن الوقت ثم ترمي بالقلم وتعود إلى سريرها لـتغطَّ فـي نومٍ عميق، وأنه (أي زوجها) كان يُفاجـأ بعـدم بعـد معرفـتها شيء حول هذا الموضوع بل استغرابها له عند استفساره عن مصدر هذه الأشعار في الأيام التي تلي كتابتها ممـا يـدلّ بأنَّها لمِ تكن تعي ما تقوم به خلال نومها أو تدري شيئاً عنه..

وأضـاف المحاضـر مـرَّةً أخرى بأنَّ الأشـعار الـتي كانت تلك السيدة تكتبها خلال نومهـا شـبيهةٌ لدرجة كبيرة تكاد تكون فيها مماثلة للقصائد التي كان قريبُها الشاعر الكبير شـوقي ينظمها قبل وفاته من ناحية الأسلوب المميـز والعاطفـة المتدفقة والصور الشعرية المستخدمة. وأنَّ المحلِّلين والمختصين والنقاد لـم يستطيعوا التمييز بينهما. وأنَّه يُنتظر بعد تجميـع عـدد من القصائد التي يجري كتابتها بهـذه الطريقة أن يصار إلى نشرها في ديوانٍ يُطلقُ عليه اسمُ (ديوان شوقي بعد مماته).

وقد حلَّلَ المحاضرُ هذه الحالة الغريبة قائلاً بأن الزوجة المذكورة هي من أصحاب الأرواح القويّة التي وقفت الظروف سدّاً حائلاً بينها وبين تحقيق ذاتها حين حرمتها من التعليم، وأنَّ هذه الروح كانت قد تآلفت مع العبقرية الشعرية في روح الشاعر المبدع "أحمد شوقي" إلى درجة الاندماج أو التمازج، ولكنَّها لم تستطع أنٍ تعبِّر عن نفسها لضعف في تأهيلها. لذلك فإنّها لم تجد متنفساً لها إلاّ أثناء لا شعورها وخلال حالة النوم، وأضاف بأن حلول أرواح بعض العظماء كنابليونٍ وهتلر في أجسادٍ أخرى أمرٌ حدث وقابلٌ للحدوث.

وبينما كان الحاضرون في حيرةٍ من أمرهم فيما يقوله غير قادرين على تصديقٍ ما يسمعونه منه انبرى أحدُ الموجودين في القاعة، وكان طالباً في الكلية التي يدرس هو بها، معروفاً لدى زملائه باهتزاز تصرُّفاته، وغرابة أطواره بالإضافة إلى انعزاليته، لدرجة كان معها فيها مثار تعليقهم ومدار تلميحهم، انبرى ذلك الطالب لمقاطعة المحاضر بعد أن انتصب واقفاً ومدَّ يده إلى الأمام بالشكل نفسه الذي كان هتلر وأتباعه يمدُّونها به، وبدأ بإلقاء خطبة ناريَّة ملتهبة بصوت مرتفع داوٍ وبلغة ألمانية يبدو من طريقةً نطقها أنهاً سليمةً ومماثلة للشكل الذي ينطقها بها أبناؤها. وكانت أعصابه خلال إلقائها مشدودة وحماسته متناهية بحيث لم ترفَّ له في أثنائها عينٌ ولم يهتزُّ طرف. ثم عمد بعد انتهائه منهاٍ إلى نفض رأسه بالشكل الذي ينفضه به المبتلٌ الخارج من حمّام السباحة لنثر الماء العالق على شعره. وجلس على مقعده وأخذتْ تظهرُ عليه تدريجيّاً علاماتُ العودة إلى الحالة الطبيعية، بينما كان الذهولُ يخيِّمُ على الحضور بشكلٍ واضح بل وازدادت شدَّتهُ لدى إنكار الطالبً لما قام به عند سؤال المحاضر له عن ذلك وإصراره على عدم معرفته باللغة الألمانية. ولقد تبدَّد بعضُ الذهول إثر تحليل المحاضر لتلك الحالة بتصنيف ذلك الطالب ضمن مجموعة أصحاب الأرواح القوية التي حالت الظروف دون وصولها إلى ما تبتغيه. ووصف ما قام به بأنَّ روحَ هتلر حلَّت فيه في أثناء وجوده في القاعة وخلال استماعهِ للمحاضرةِ التي كان يلقيها، مما جعله ينطقُ بإحدى الخُطب المشهورة له، والتي كان قد ألقاها في واحدة من المناسبات الشهيرة، دون أن يشعر بما قامٍ به.

وفكَّر طويلاً إثر تلك المحاضرة في مدى معقولية ما سمعهُ فيها، وتتبَّع لفترةٍ ليست بالقصيرة صدور ديوان الشعر الذي أفادً المحاضر بإمكانية ظهوره عند الانتهاء من إملائه. وترامى إلى مسامعه مؤخَّراً بأنّ هذا الديوان قد صدرٌ ولكنّه ليس متأكداً من صحةٍ الخبر لأنه لم يطَّلع عليه شخصيّاً وهو في كلٍ الأحوالِ لا يملكُ حتى في حالة اطلاعه عليه مستقبلاً إلاَّ أن يترك أمر التأكد من سلامة ذلك التحليل أو تقديم المناسب من التعليل إلى تقدم العلم في قادم الأيام.

* * *

وعلى ذكر الشعر وعلاقته بالاختلاطات التي كان من أبرز روّادها "قيس بن الملوح" أشهر العاشقين والمجانين في التاريخ العربي، وصلة هذا الشعر بعالم الروحانيات الذي يحوي أسرار الحياة وما بعدها، ويبثُّ بعضاً منها على شكل رسائل يوحيها عالمٌ آخر.. تختتم حكاياتنا برواية حادثة كان هو طرفاً فيها.. كان الطرف الآخرِ فيها زميلاً له في العمل تعرض الجدارُ الفاصلُ عنده للانهيار إثر ضغوط نفسيَّة خاصَّة دفعته لأن يلجأ للأطباء النفسيين الذين ساعدوه على ترميم ذلك الجدار ممَّا أوقف انهياره. وإن لم يمنع من ظهور تشققات فيه بين الفينة والأخرى. كان الأطباء يسارعونَ لمعالجتها بالأدوية وأساليب العلاج المناسبة.

وكـــانت علاقـــته معه لا تتعدّى علاقة الـــزمالة البحـــتة والاحترام المتبادل. إذ كانا لا يجـــتمعان إلاّ نـــادراً وفـــي مناسبات محدودة يتبادلان خلالها التحيَّة وبعض كلمات المجاملة، لكنَّ ذلك الزميل طرقَ باب مكتبه مرَّةً على غير عادتـــه، واستأذنه أن يشربَ فنجاناً من القهوة معـــه، أخـــبرهُ خـــلال تناوله إيَّاه بأنَّه يأملُ أن يؤدِّي له خدمةً لن ينساها مدى العمر.

وعـــندما ســـأله عـــن نـــوعِ الخدمة المطـــلوبة، أجابه بكثيرٍ من الخجل بأنّه يرجو أن يـــنظمَ له قصـــيدةً يصف له بها فتاةً اسمها "هـــزار" كـــان يحبُّها منذ ما يزيدُ عن عشرين ســـنة، وانقطعـــت صلته بها بزواجها من آخر وســـفرها خـــارج البلاد، كما أخبره بأنَّه يطلبُ مـــنه ذلـــك بعد مرور هذه الفترة الطويلة لأنَّ صـــورتها لـــم تفارق ذهنه منذ افتراقه عنها، وأنها تبرزُ أمامه في الفترة الأخيرة بشكلٍ غير مـــألوفٍ ورجـــاه بحـــرارة بـــأن يحقـــقَ أمله بالحصـــول عـــلى قصـــيدة يـــترنّم فيهـــا بها، ويســـتعيض بهـــا عنها، ويرى صورتها فيها، وينسم أنفاسها منها..

ولمَّـــا أعلمه باعتذاره عن تلبيةِ رغبته لأنَّـــه لا يســـتطيع أن يصف فتاةً لا يعرفُها، أو يتمـــثَّل حالـــةً لم يعشها، أو يتجسَّد مشاعر لا يحـــسُّ بهـــا لأنَّ الشعر بطبيعته لا يخرجُ عن كونـــه تعبيراً عن إحساسٍ، أو انعكاساً لمعاناة، أو تـــرجمةً لخواطر ينفعل بها ويتفاعل معها.. لكـــنَّ ذلك الزميل سارع لإعادة طلبه قائلاً بأنَّه ســـيعمدُ إلى مســـاعدته لـــنقل إحساسه إليه، وعـــرض معاناتـــه عليه، بأن يكتب له قصّتها كامـــلةً مـــنذ لحظة اللقاء وحتى لحظة الفراق وأن يدعم هذه القصة بصورهما معاً كي يجعله يتفاعل مع أحداثها وينفعل بها.

وأردف قوله برجاءٍ قريب إلى التوسُّل بأنَّـــه لا يستطيعُ أن يتخيَّلَ مقدار الجميل الذي ســـيؤديِّه له والسعادة التي سيسبغُها عليه في حالـــة تلبيته هذه الرغبة له.. عندها سأله فيما إذا كـــان لا يزال يحبُّها رغم مرور هذا الزمن الطويل بالدرجة نفسها التي كان يحبَّها فيها في ذلـــك الوقـــت. أجابه بأنَّ حبها ازداد كثيراً إثر فـــراقهم مباشـــرةً، وتعـــاظم عـــند بداية فترة زواجـــه، ثـــم صرفته مشاغل الحياة عن كثرة الـــتفكير فيها، ولكنَّ ذلك لم يؤثِّر على مقداره، بدلالـــة أنَّه عاد ليبرز رأسه في الأيام الأخيرة ويحتلَّ الحيِّز الأكبر من مساحة حياته.. ثم تابع مازحاً بأنَّه اعترف مرة لزوجته بهذا الحب بعد مضـــي فترة من الزواج، وقال لها مداعباً بأن تلك الفتاة هي الوحيدة التي يمكن أن يتزوجها عـــليها لـــو سمحت له الظروف بذلك. وأنه لا يمكـــن أن (يعمـــلها) بغير هذه الحالة. وعندما سأله عن ردِّ فعلِ زوجته تجاه ذلك أجاب بأنّها غضـــبت كـــثيراً ثـــم سايرته وأخذته على (قد عقلـــه) وعاد بعد هذا الانعطاف ليكرِّر رجاءه بتـــنفيذ هذه الرغبة له، ذاكراً بأنَّه سيحضرُ له قريـــباً القصـــة والصور واضعاً إيَّاه أمام الأمرِ الواقـــع. مما جعله يضطرُّ لإجابته بأنه سيفكرُ بالموضـــوع.. وفي صباح اليوم التالي أحضر لـــه العديـــد من صورهما معا والتي لاحظ من خلالها جمال تلك الفتاة الفاتن، ورقتها البالغة. كمـــا أحضـــر عـــدة وريقات كتب عليها بعض التفاصيل التي تخلَّلت علاقة الحب البريئة التي ربطـــتهما حين كانت جارةً لهم وصديقةً لأخته الـــتي تصغره بسنتين خلال فترة بداية دراسته الجامعيـــة ونهاية دراستها الثانوية. كما كانت الوحيـــدة التي طرقت بقوة أبواب قلبه ودخلت بانســـياب إلى أعماقـــه. إذْ كان يشعر بمتعة لا مـــثيل لهـــا عن اللقاء بها وبقشعريرة صاعقة عـــند إمساكه بيدها وبدوار لا يزال يعاني منْ آثـــاره عـــند الـــتقاء نظراتهما وبإغماءة تكاد تطـــرحه أرضـــاً عندما يتصور أنه يضمُّها إلى صدره ويستمعُ إلى إيقاعات قلبيهما المتناغمة. كمـــا كان يحس بأنه الوحيد الذي لامسَ شغاف قلـــبها وتسلل إلى محرابه ويشعر بأنَّها تبادله صـــادق العاطفة ونبيل الأحاسيس. ولكنه رغم

مشاعر الحب العارمة التي كانت تربطهما لم يتمكنا من إنهاء علاقتهما بالزواج لعدم تمكنه من تحمل تكاليفه في تلك الفترة المتقدمة من حياته مما دفعه إلى الانسحاب من طريقها عندما تقدم لها عريسٌ ثري يقيم في إحدى الدول الأوروبية، وعندما أحسَّ بضغوط أهلها الشديدة لقبوله، وبإمكانياته الكبيرة لتهيئة ظروف حياة رغيدة لها، وأضاف في نهاية تلك الوريقات بأنه لَم يشاهدها بعد ذلك إطلاقاً ولكنه لا يزال يحمل لها كلَّ الحب وكلَّ تمنيات السعادة.. ولقد أثاره في تلك القصة المكرورة صدق العاطفة الذي ظهر جلياً في الجملة الأخيرة منها، والتي ذكر فيها بأن يبتهل إلىالله لإسعادها ويصلي له كي يحيطها بالمسرة ويجللها بالهناء. رغم أنَّها بعيدة عنه وفي أحضان غيره. إذ أحس من هذه الجملة أنه يحبُّها بالشكل الأسمى للحب الذي يتنزه عن الأغراض، ويترفَّع عن الغايات، ويرمي إلى سعادة الطرف الآخر ولا شيء غيره. كما أثارته ملامحُ تلك الفتاة الرقيقة وقسماتُها الملائكية ونظراتها الحالمة فنزل عند إلحاحِ ذلك الزميل وإصراره وكتب له القصيدة التي طلبها والتي قال فيها:

هزارُ القلبُ يهواكِ
ويعشقُ طيبَ ذكراكِ
وينسمُ منه أنفاساً
يعانقُ فيها مسراكِ
ويلثم حرقةً حرَّى
تنامت في ثناياكِ
ويعصرُ جمرها خمراً
ويُدمنه ليحياكِ
ويجمعُ نتفَ أشلاءِ
لماضٍ حالمٍ حاكي
ويبدعُ منها تمثالاً
يجسِّده ليسلاكِ
ويعجنُ حبَّكِ الممزوج
بأحمر دافقٍ زاكي
لينسُجَ منه تعويذاً
يظلِّلُ فيه مأواكِ..
ويحيي فيك عذراءً
فما العذراءُ إلاَّكِ..
ويذكي منك نيراناً
بلا وهنٍ وإربَاكِ..
ويسمو معك للجوزاء
كربَّة حُسْنٍ وملاكِ

* * *

هزارُ يا أهازيجاً
بليلٍ ناعسٍ باكي
ويا أنشودةً طلَّت من
الأعماقِ تُهداكِ
ويا شهدا تسيل بها
إذا ما لامستْ فاكِ
ويا وجداً أنوءُ به
كحافٍ فوق أشواكِ
ويا سعداً أحنُّ له
ليسكنني حناياكِ
ويا خفقاً أحسُّ به
يرفرف في خباياكِ
ويا شوقاً خُذْ بيدي
إلى آفاقِ علياكِ
ويا أملاً بلا رسم
به أنضمُّ للولاكِ
ويا كوناً بأجمعه
أراه في محيَّاكِ
ويا صوتاً من الأبعاد
يناديني.. أنا داكِ

ولقد كان فرحُ ذلك الزميل عارماً وسروره بالغاً بهذه القصيدة التي أعاد قراءتها عند تقديمها له عدداً من المرات، كان يعلق

خلالها على كل بيت فيها. وأماَّ أكثر ما أعجبه بهـا فكان البيت الأخير منها، حيث قام بسؤاله إثر إعادة قراءته له عدداً من المرات عن مدى اعـتقاده باجـتماع أرواح الأحبّاء في الجوزاء بعـد موتهمـا، فأجابه بأنه يعتقد ذلك إذا كان الحـبُّ حقيقياً لأنَّ السماءَ امتداد للأرض، فإذا كـانت هذه الأرواحُ تلتقي على الأرض أحياناً رغـم ابـتعاد الأجساد فإنها ستلتقي حتماً في السـماء بعد زوالِ هذه الأجساد. وأعجبته هذه الإجابـة وربـط بينها وبين البيت الأخير الذي يقول:

ويـا صـوتاً مــن الأبعــاد

يناديـــــني.. أنــــاديكِ

وأخذ يسائلُ نفسه ويجيبها أمامه قائلاً بأنـه يسمع صوتها من الأعماقِ البعيدة يناديه وأنـّـه متأكدٌ أنَّ صوته يصل إليها من الأعماق نفسها..

وقـد عمد ذلك الزميل في صباحِ اليوم الـتالي، وإثر وصوله إلى مكتبه مباشرةً، إلى مخابـرته هاتفياً وشكره مرة أخرى على ذلك الجميـل الـذي أسداه له. كما عمد إلى قراءة البيت الأخير من القصيدة مترنماً. وأعادَ العمل نفسـه فـي صباح اليوم الذي تلاه وفي صباح الأيــام الـثلاثة التالية، معيداً تلاوة ذلك البيت ومكـرِّراً شـكره. ولكنه انقطع عنه في اليوم السـادس الذي كان يوم خميس وقد سأل عنه الحاجب لدى جلبه فنجان القهوة الصباحي له، فأعـلمه بعـدم حضـوره ذلك اليوم، واحتمال انشغاله بعملٍ ما أو كونه مريضاً.

وعندَ ضُحى اليوم التالي كانت مفاجأته أكـبر من أن توصف، وألمه أكثر من أن يقدَر، فعـندما اتصـل بـه مديـر ذلك الزميل هاتفياً وأخـبره بوفاتــه صباح اليوم نفسه إثر نوبة قلـبية حــادّة اصابته وأودت بحياته. ثم ترحّم عـليه كثيراً داعياً له بطول البقاء، واتفق معه عـلى المشـاركة في تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير.

ومــرَّت بذهـنـه إثـر إغلاقه لسماعة الهـاتف، وفـي أثـنـاء قيامه بواجب التشييع، الأحـداثُ التي دارت بينهما خلال الأيام العشرة الـتي سبقت وفاته. ولم يجد تفسيراً لها سوى أنَّ هاتفـاً قد قرع جرسهُ عالياً لينبِّه أحاسيس ذلـك الزميل بأنَّ نهايته قد دنتْ. وليحفزه لأن يسـتعيد أجمل ما مرَّ في حياته ليعيشَ أحداثها قبل مغادرته لها. وأخذ يفكر بمقدار ما يحتويه هـذا الوجـود مــن أمور يصعب حلَّ ألغازها وإيجـاد التفسـير المعقـول لهـا، ولكن هذه الأحـداث مـرَّت بشكل أكثر قوة وأعنف تأثيراً بعـد عدة أيام من وفاتّه، عند وجوده مصادفةً فـي الإدارة الـتي كان ذلك الزميل يعمل بها، وخـلال حضور أحد أقربائه لأخذ حاجياته التي كـانت في مكتبه. عندما عثر ذلك القريب على تلك القصيدة وقرأ بعض أبياتها وقال للموظف الذي كان يرافقه بصوت عالٍ سمعه هو للغرفة المجـاورة الـتي كـانَ واقفاً فيها، بأنَّ الفتاة الموصـوفة فـي القصيدة قد حصل لها حادث سـيارة فــي البلد الأجنبي الذي كانت تقيم فيه قبل حوالي أسبوع من وفاة ذلك القريب، حيث فـارقت الحياة بعد عدة أيام من وقوعه، وأنّهم سمعوا بهذا الخبر منذ يومين فقط.

ودارت أمامه الدنيا عندما سمع ما قاله ذلـك القريب. وكاد أن لا يصدِّق أذنيه، وعندما عـاد إلى مكتبه كانت تدقُّ في رأسه تصرفاتُ ذلـك الـزميل وإصـراره على الحصول على القصيدة وتعليقاته إثر حصوله عليها. كما كان سـؤاله عــن إمكانية التقاء أرواح الأحبّاء في السـماء يتراقصُ أمام عينيه. في الوقت نفسه الـذي كـان فيـه صوتٌ من الأبعاد يرنُّ عالياً مدويّـاً مخـترقاً عـنان الفضاء مؤكِّداً وصول النداء.



لسنا في حاجة إلى بيان الدور الذي اضطلعت به اللغة العربية كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق العواطف إذ يكفي أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم.

ففي مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والأدبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الأساسي للتفاهم بين العلماء والتعبير عن أعمق النظريات التقنية يوم كانت الحضارة العربية في عنفوان ازدهارها ويكفي أن تتصفح كتاباً علمياً أو فلسفياً لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة ففي العربية إذن (مقدرات) شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها إلا على مدى ضلاعتنا في فقه اللغة.

والكل يعلم أن منذ أواخر القرن الهجري الأول (انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق) ولم تستفد من هذه الحركة - كما يقول مؤلف (المعجزة العربية)- السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وإنما استفاد منها شعب عاش لحد ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن هناك في الظاهر ما يحدوه إلى الاضطلاع بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربي.

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أقدم عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع إلى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الإسلام أكثر منها إلى القرار الذي اتخذه الأمويون بجعل اللغة العربية إجبارية في الوثائق الرسمية وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الأدنى، وتمخض هذا الانحلال عن (أكبر فوضى في اللغات والأديان) فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل

مــن تراثها الخاص لتعتنق على أثر احتكاكها بالعرب معتقداتهم وأعرافهم وعوائدهم

وقــد أوضــح كوســتاف لوبــون في كتابه(حضارة العرب) أن العربية أصبحت اللغة العالميــة في جميع الأقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماماً اللهجات التي كانت مستعملة فــي تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية..

وقد عربت أهم المصنفات اليونانية في عهــد الخــلفاء العباســيين انكب العرب على دراســة الآداب الأجنبية بحماس (فاق الحماس الــذي أظهــرته أوروبا في عهد الانبعاث) وقد خضــعت الــلغة العــربية لمقتضيات الإصلاح الجديــد فانتشــرت فــي مجمــوع أنحاء آسيا واستأصــلت نهائياً اللهجات القديمة وقد قضت حــتى على اللاتينية لا سيما في شبه الجزيرة الأيــبيرية(إســبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب المســيحي(الفــارو) - وهــو من رجال القرن التاســع الميــلادي- بجهل مواطنيه باللاتينية فقال:

(إن المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائــع الخيــال العربية ويدرسون مصنفات عــلماء الكــلام المسلمين لا بقصد تنفيذها بل مــن أجــل الــتمرن عــلى الأسلوب الصحيح الأنيق).

وقد أكد المؤرخ(دوزى) أن أهل الذوق مــن الإســبان بهــرتهم صناعة الأدب العربي واحــترفوا الــبلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين .

كمــا نقــل (دوذى) عن صاحب كتاب (ألوســى مــوزار أيبس دوطوليد) أن العربية ظــلت أداة الــثقافة والفكر في اسبانيا إلى عام ١٥٧٠م.

إن اللغة العربية التي بلغت مبلغاً كبيراً مــن المرونة والثروة في العهد الجاهلي وفي عنفوان العصر العباسي أوج كمالها وقد وصف زكــي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن ووصف (فيكتور بيرا) اللغة العربية في ذلــك العصر بأنها أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير).

إن نفــوذ الــلغة العــربية أصبح بعيد المــدى حتى إن جانباً من أوربا الجنوبية أيقن بــأن العــربية هي (الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب) وأن رجــال الكنيســة اضــطروا إلى تعــريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها فــي الكنائس الإسبانية وأن (جان سيفيل) وجد نفســه مضطراً إلى أن يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس.

وقــد أكد جوستاف لوبون (ص٤٧٢) (أن العربية من أكثر اللغات انسجاماً فهي وإن كــانت تحــتوي عــلى عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه الــلهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق جد طفيفــة بينما نلاحظ أن سكان قرية في شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة فــي قرى الجنوب، نرى سكان شمالي المغرب الأقصــى يــتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجــاز) وقــد قال الرحالة (بوركاد) بأن كل مــن عــرف إحدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عناء) .

ومعــلوم أن الجامعــة الأوربية كانت عــاملاً مهمــاً فــي ذيــوع اللغة العربية التي أصــبحت فــي العصور الوسطى لغة الفلسفة والطــب ومختــلف العلوم والفنون بل أصبحت لغــة دولية للحضارة ففي عام ١٢٠٧م لوحظ وجــود معهــد فــي جنوب أوربا لتعليم اللغة العــربية ثم نظم المجمع المسيحي العالمي بعد

ذلك تعليماً في أوربا وذلك بإحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية وفي القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتماماً خاصاً بتدريس اللغة العربية ونشرها، ففي عام ١٦٣٦ قررت حكومة (السويد) إلى طبع ونشر المصنفات الإسلامية وبدأت (روسيا) تعنى بالدراسات الشرقية والعربية خاصة في عهد البطرس الأكبر (الذي وجه إلى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفي عام ١٧٦٩ قررت الملكة (كاترينا) إجبارية اللغة العربية وفي عام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات السامية في جامعة (بتروكراد).

وقد اتجه اقتباس أوربا من العربية نحو الميدان العلمي فدخلت إلى اللغات الأوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والإكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الإسبان - حسب ليفيي بروفنصال- معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية إلى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموع مصطلحات الري هي كذلك من أصل عربي كما تحمل الحلي في إسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس التأثير في الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت إسبانيا وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً .

وقد لاحظ عالم إيطالي كبير أن معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضل إشعاع الإسلام الثقافي.

بل إن الإصلاح الخاص بالكنيسة تأثر إلى حد بعيد بالطابع العربي فقد اعترف (البارون كارادوفو) مؤلف (مفكرو الإسلام) - وهو مسيحي متحمس- بأن الإسلام علم المسيحية منهاجاً في التفكير الفلسفي هو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية وأن مفكري الإسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التي استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك استكمال عقيدتها جوهراً وتعبيراً وهذه ظاهرة لاسيما إذا اعتبرنا مدى مساهمة الفلسفة الإسلامية في تكوين (علم الكلام theology خلال القرون الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على أشهر مفكري المسيحية .

وقد عبر الأستاذ (ماسينيون) عن نفس الفكرة قائلاً: "أن المنهاج العلمي قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الأوربية" .

ثم قال:"إن العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفي سربال الفتوّة على التفكير الغربي كما أنعشت (ألف ليلة وليلة) في القرن السابع عشر الميلادي ذهنية أوربا التي أتخمتها أساطير الإغريق والرومان" .

وقد ختم (ماسينيون) وصفه الرائع قائلاً: "إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وأن استمرار حياة اللغة العربية دولياً لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل".

وهكذا يمكن القول بأن اللغة العربية انتشرت في العالم من قبل، وذيوعها في بلاد المشرق وفي إفريقيا قد تم تحت كنف الحضارة الإسلامية.

أما اليوم وقد تغيرت عجلة الزمن فإن التقدم العلمي والتكنولوجي جعل اللغة العربية تتعثر نظراً لعدم وجود مراجع علمية عربية كافية في مختلف العلوم للتدريس الجامعي (وحركة الترجمة والتعريب في العالم العربي

تسير سيراً بطيئاً لا يوازي التطور السريع للعلوم والفنون الشيء الذي جعل اللغة العربية تفتقر دائماً إلى كثير من المصطلحات العلمية والتقنية) ونظراً لاختلاف المصطلحات بين البلاد العربية، وانعدام المناهج المنطقية الموحدة والوسائل الصالحة، وصعوبة اللغة العربية من حيث القواعد والكتابة، وعدم اهتمام أبناء العروبة بنشر لغتهم في الخارج وخاصة في الدول الإسلامية غير العربية.

ولذلك وجب تشجيع تعريب وترجمة الكتب والمراجع العلمية الجامعية والبحث والتأليف في مختلف العلوم والفنون باللغة العربية وإصدار معاجم علمية وتقنية تهتم بالمصطلحات في مختلف العلوم وتوحيدها بين البلاد العربية ومتابعة ما استجد من مفاهيم ومدركات علمية تحت إشراف هيئة مختصة كمكتب تنسيق التعريب بالرباط حتى لا تتفرغ اللغة العربية -لا قدر الله - إلى لهجات إقليمية مختلفة كما حدث للغة اللاتينية بأن يقتصر التعريب الحرفي على المصطلحات الدولية للمفاهيم والنحت في بقية المجالات.

وهذا يتطلب الوحدة الثقافية العروبية بتوحيد المناهج والكتب الدراسية وتوحيد المصطلحات العلمية في مؤتمرات تعقد لهذا الغرض تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم بمشاركة الهيئات المختصة ووضع كتاب مبسط في قواعد اللغة والنحو وتبسيط الطباعة العربية والعناية بالكتاب المدرسي وبالمناهج المقررة وبأسلوب التعليم بصفة عامة، وذلك بتوسيع المجال الفكري والعاطفي للطفل العربي وتعليم اللغة العربية للأجانب ونشرها في العالم واللغة العربية صالحة للتدريس الجامعي للعلوم الإنسانية وهي صالحة أيضاً لتدريس العلوم الحديثة بالاستعانة بلغة أجنبية في الوقت الراهن ولزمن محدود والاستناد دوماً إلى المراجع العلمية المتعددة اللغات لأن مشكل الارتكاز على اللغة الوطنية كأداة للتعليم الجامعي ضرورة قومية ولكن الحفاظ على المستوى العلمي الإنساني يستلزم عدم الارتجال ودعم هذا النوع من التعريب المرحلي بلغات ومراجع أجنبية وليس المشكل خاصاً باللغة العربية فالمفاهيم العلمية المستجدة تكاد تبلغ الخمسين في كل يوم ، وتصطدم دول عظمى كفرنسا بصعوبات جلّى في كل يوم بحيث لا تستطيع - رغم ما تبذله من جهد عن طريق عشرات الهيآت المختصة - فرنسة أكثر منصف المدركات الجديدة وهي تعاني باستمرار من النقص المتزايد بالتدريس الجامعي التقني الدقيق دون اللجوء إلى مصطلحات أجنبية.

كيف يعمل مكتب التعريب؟

إن إيجاد هذا المكتب عمل ثوري في حد ذاته، إنه ثورة هادئة عميقة معقولة، إنه ثورة مدروسة مخطط لها انطلقت من مبدأ ثابت رصين وسلكت سبيلا نيراً ورمت إلى هدف واضح معروف... ولاحظ المكتب هذه الفوضى في التعريب ورأى كيف يوضع للمصطلح الواحد أكثر من مرادف معرب أحياناً وعرف أن من أهم الأسباب في ذلك اختلاف أثر بالثقافة اللاتينية كسوريا ولبنان والمغرب العربي وبعضهم تأثر بالثقافة السكسونية كالعراق والأردن ومصر وأن بعض العلماء على حظ كبير جداً من العربية ومن الثقافة الإسلامية كخريجي الأزهر والنجف ودمشق والزيتونية والقرويين وبعضهم على حظ ضئيل منها كخريجي المعاهد الأجنبية. ولاحظ المكتب كذلك أن مستوى المدارس الابتدائية في معظم الوطن العربي دون مثيلاتها في البلاد

الراقية،وقام بإحصاء دقيق للمصطلحات والمدركات الواردة في جميع الكتب المدرسية وجردها فاكتشف أمراً عجيباً وهو أن مجموع مدركاتنا لا يتجاوز ثمان مائة مدرك، بينما يجتمع في ذهن التلميذ الأجنبي ألف وخمس مائة مصطلح، ومعنى ذلك أن مستوى إدراك الطفل العربي يقل عن مستوى زميله الأجنبي بمقدار النصف ولذلك يعاني تلميذنا في ملاحقة المدركات العلمية في المدارس الثانوية والجامعية معانات مؤلمة جداً هي التي جعلت نسبة الناجحين بالامتحانات العامة والانتقالية في مستوى منخفض .

عرض المكتب هذا الواقع على الدول العربية ودعاها إلى إعادة النظر في الكتب والمناهج معاً وقدم لها نموذجاً هو معجم رياضي شامل وسيلحقه معجم لدروس الأشياء استكمالاً للمفاهيم الإنسانية في الأطفال أي دعا إلى ثورة عميقة في أول درجة من درجات الثقافة لأن الكتب المدرسية ما هي إلا صدى للمناهج وكان ذلك أول أعماله ثم التفت إلى المصطلح المعرب فوجد أنّ، حاجة البلاد العربية إليه متفاوتة تفاوتاً بعيداً كذلك، حيث تغلل الاستعمار في بعض البلاد إلى أعماق مجتمعنا وحاول اجتثاث ثقافتنا العربية من أصولها ونشر لغته بكل وسيلة حتى أصبحت لغة المدرسة والمعمل والشارع والبيت.

إن النخبة المثقفة في البلاد العربية على العموم وفي المغرب على الخصوص، متأثرة بقدرة المصطلحات الأجنبية العلمية على الدقة في التعبير والتصوير للمدرك العلمي والتقني فلا يرضيها التعريب الارتجالي ولا الفوضوي المتنافر ولا المتعدد المتكرر أو الناقص في دقته وأحكامه، وهي على حق في هذا لأنها ترى الفكر العربي على مفترق الطرق وتريد له أن يسلك السبيل السوي وترى لغتها وقد قبلت في المجامع الدولية لغة خامسة إلى جانب اللغات الحية العظمى فتريد لها دوام التقدم واطراد النجاح، ولقد لاحظ مكتب التعريب هذا الأمر فاتخذ لذلك خطة علمية دقيقة يحمل مسئوليتها علماء العرب مجتمعين فهو يضع المصطلح بلغتين أجنبيتين معاً هما الإنكليزية والفرنسية ويضع أمامه جميع المصطلحات التي عرب بها منسوباً كل منها إلى صاحبه أن كان مجمعاً علمياً أو أستاذاً لغوياً مشهوداً له بالتفوق، أو معجمياً معروفاً ... وينشر ذلك على شكل معجم الفبائي الترتيب ويضعه تحت أنظار العلماء العرب لمدة لا تقل عن ستة أشهر ثم يدعو إلى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد في ظل الجامعة العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الآن) بالعواصم العربية على التوالي فيتدارسون المعجم وينقذونه ويختارون المصطلح الذي يريدون فيصبح شبه إلزامي، واختيار مصطلح واحد من بين مجموعة مصطلحات يوحد التعريب حتماً ويسهل السبيل على الدارسين والمدرسين والمؤلفين والكتاب.

إن الحضارة العلمية تقذف في كل يوم بما يتراوح بين خمسين ومائة مصطلح جديد إلى ساحة التداول العلمي، فكيف نلاحق هذا التراكض؟ إن المكتب يتراكض معها ويلاحق تطورها ويجمع المصطلحات فيعربها على هيئة ملاحق معجمية ويختار للمصطلح ما يقابله ويعرضه مع المعاجم الأولى على علماء العرب للمداولة.

وتنبه المكتب إلى أن جميع معاجم اللغة لم تجمع مفرداتها كلها، فهناك مفردات متناثرة في كتب العلوم والأدب والتاريخ والجغرافيا القديمة لم تدخل المعاجم، وجمعها يحتاج إلى وقت طويل جداً فماذا فعل؟

إنـه جـرد أكـبر المعـاجم العـربية المعروفة (مثل لسان العرب) وقد قمت شخصياً بذلـك ونسـقته فـي جزازات وجعلته منطلقاً أضيف إليه كل يوم ما يجتمع لدي من جزازات مصنفة تصنيفاً أبجدياً حتى بلغت مئات الألوف، هـي التي ستكون أساساً لمعجم المعاني الجديد واستخلصت منها عدداً من المعجمات في بعض الفنون كمعجم الفقه المالكي، ومعجم الأطعمة، ومعجـم الألـوان، ومعجـم الرياضة واللعب، ومعجـم الآلات والأدوات والأجهـزة، ومعجم أسـماء العـلوم والفـنون والمذاهب والنظم، ومعجـم الحـرف والمهـن، ومعجـم البناء، والمعجـم المنزلي، ومعجم الأطعمة، وعشرات أخرى أعددت بعضها والآخر في طور الإعداد.

منهاج لتنسيق التعريب في الوطن العربي

إن تـدارك الـنقص الذي تعانيه اللغة العـربية في أداة كثيرة من المفاهيم الإنسانية بصفة عامة، وفي التعبير عن مدركات العلمية والتقـنية بصـفة خاصـة قد أصبح بلا نزاع ضـرورة حـتمية يؤمن بها الجميع ولا يزال العامـلون في مختلف البلاد العربية منذ القرن الماضي يسعون في سبيل القيام بها ما وسعهم السـعي، لكـن دون خطة مدروسة ولا طريقة محـددة ولا مـنهاج معـلوم بل كل يعمل على شاكلته وفي عزلته ليسد بعض ما يواجهه من فراغ .

ولا يسـع أحد أن ينكر أن هذه الجهود رغماً عن تشتتها وتنوعها وعدم منهاجيتها قد أتت بنتائج حسنة قيّمة في حد ذاتها لكن قيمة هـذه الثورة النفسية التي اكتسبتها لغتنا فهي تتضـاءل أمام ضخامة الزمان الذي استغرقته تـلك الجهـود فـي جمعهـا وإن جدوى هذه الحصـيلة الضـخمة من المصطلحات الجديدة والكـلمات المسـتحدثة لـتكاد تتلاشـى إزاء السرعة التي تتقدم بها العلوم والفنون وتسير بها الحضارة الإنسانية في هذا العصر .

أجـل، إن لغة الضاد صارت في مطلع هذا القرن بفضل أولئك العاملين أقدر منها في القـرن الماضي على إبانة مقاصد الناطقين بها ثـم أصبحت في منتصف القرن العشرين أكثر اقـتداراً مـنها في الربع الأول من هذا القرن، فحيـنما نسـتعرض مثلاً المصطلحات العلمية والفـنية الـتي أقـرها مجمـع اللغة العربية بالقاهـرة فـي الـثلاثين عاماً التي مرت على تأسيسـه وحيـنما نمعـن الـنظر في القواعد اللغوية التي أعدها هذا المجمع لعمل المعربين وسـائر الـلغويين فإننا لا نملك إلا أن ننحني إعجاباً وإكباراً لهمة رجاله وكفاءتهم وغيرتهم على لغتنا القومية، فإنهم رغماً عن محاربتهم الـنقص في واجهتين معاً: وضع المصطلحات الجديـدة من ناحية وسن القواعد لوضعها من ناحيـة أخرى، ورغماً عن قلة الوسائل المادية المتيسـرة لديهـم وعـدم تفرغهم للعمل فقد تمكـنوا من توفير الأداة اللازمة لعمل التعريب من قواعد للوضع والاشتقاق والنحت والتركيب والجمـع الخ...مثلما وفقوا إلى وضع المقابل العـربي لكثير من المصطلحات العلمية والفنية الأعجمية .

وقد تعززت أعمال هذا المجمع بأعمال مؤتمـرات وهيـئات عـلمية ومهنية مختلفة وبأعمـال أفـراد من الشخصيات العلمية ذوي الـثقافة المزدوجة من أمثال انستاس الكرملي، والدكـتور أمين معلوف، ومصطفى الشهابي، وعـبد الـرحمن الكواكـبي، وخليل شيبوب. فـازدادت بذلـك ضخامة حصيلة المصطلحات الموضوعية.

لكـن هـذه الحصيلة كلها ليست سوى غرفة من بحر بالنسبة إلى مجموع مصطلحات

العلوم الحديثة التي تزداد نحو ٥٠ مصطلحاً جديداً في كل يوم .

ولا مندوحة عن الاعتراف بأن تلك الطريقة العفوية غير المحدد موضوعها ولا شكلها ولا زمانها والتي سار عليها حتى الآن عمل التعريب في العالم العربي لا يمكنها أن تكفل حاجة العرب اللغوية ولن يتسنى لها أن تسد خصاصة لغة الضاد في يوم من الأيام مهما تضاعفت الجهود واشتد نشاط المترجمين والمعربين والواضعين، فإن تخلف اللغة العربية لن يتدارك بغير خطة علمية وتقنية مرسومة بإحكام أهدافها محددة بدقة وتفصيل ووسائلها العملية معينة بوضوح خطة صالحة لتكون إطاراً لجميع ما يجري من أعمال في ميدان التعريب وما يبذل من جهود في إصلاح اللغة .

إن التخطيط لازم لعمل التعريب وهو بالتالي ضروري للقيام بمهمة التنسيق المنوطة (بمكتب تنسيق التعريب بالرباط) مادام التنسيق يعني جعل العمل يسير على نسق محدد نحو غاية معينة وهذا بالذات هو موضوع التخطيط.

لذلك رأى هذا المكتب لزاماً عليه أن يرسم لعمله منهاجاً يحيط بجميع ما يبذله من جهود ويصدر عنه من منجزات وفي نطاقه يجري التعاون مع جميع الهيئات والمؤسسات اللغوية والأفراد المعنيين بشؤون التعريب في كل البلاد العربية .

اللغة العربية كأداة للتعليم الجامعي

أجرى مكتب تنسيق التعريب استفتاء عام ١٩٦٦ حول صلاحية اللغة العربية للتعليم الجامعي وأصدر عدداً خاصاً من مجلة (اللسان العربي) أسهم في إعداده أقطاب الفكر العربي والإسلامي في هذا الموضوع الذي هو موضوع الساعة واتسمت الأبحاث والدراسات بطابع الجدية والموضوعية والمنطقية ونلخص المشاكل المطروحة مع حلولها المقترحة فيما يلي:

المشاكل التي تعترض سير اللغة العربية والتي تحد من انتشارها

١- تخلف الدول العربية العلمي والحضاري.
٢- صعوبة اللغة العربية من حيث القواعد والكتابة.
٣- إهمال الدول العربية نشر اللغة في الخارج وخاصة في الدول الإسلامية.
٤- وجود لغات دارجة إقليمية مختلفة تضايق الفصحى.
٥- انعدام الطرق والوسائل الصالحة لتعليم اللغة العربية لأبنائها وللأجانب.
٦- عدم وجود مراجع عربية كافية في نواحي العلوم المختلفة.
٧- عدم تشجيع الابتكار العلمي والتأليف باللغة العربية في مختلف فروع العلوم.
٨- عدم تحقيق الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية.
٩- محاربة الدول الاستعمارية اللغة العربية لأنها أصبحت ترتبط بمفاهيم الحرية.

الحلول المقترحة

١- الاهتمام بنهضة البلدان العربية علمياً وثقافياً لجعلها في مستوى البلدان المتقدمة.
٢- تبسيط قواعد اللغة العربية في مؤتمر عام لعلماء اللغة.
٣- اهتمام الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بفتح مراكز ثقافية عربية ومعاهد لتعليم اللغة العربية للأجانب في مختلف بلاد العالم وخاصة في الأقطار الإسلامية

غير العربية مع العناية بإعداد المتخصصين في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وبتأليف الكتب ووضع البرامج والأشرطة المسجلة والأفلام الصالحة لهذا التعليم وتوسيع التبادل الثقافي والعلمي بين البلدان العربية والبلدان الأخرى ونقل كل ما نتوسم فيه الجدة من فكرنا وأدبنا إلى اللغات الأجنبية.

٤-تشديد الرقابة على أجهزة الإعلام من أجل استعمال الفصحى دون العامية وتقريب الشقة بين الفصحى والعاميات.

٥-عناية الدول العربية بالكتاب المدرسي والمناهج المقررة وبأسلوب التعليم.

٦-وتشجيع ترجمة جميع المراجع العلمية الجامعية إلى اللغة العربية وتشجيع البحث والتأليف في مختلف العلوم.

٧-بناء الوحدة الثقافية بتوحيد المناهج والكتب الدراسية وإيجاد مجمع عربي لغوي وعلمي موحد مع توحيد المصطلحات العلمية بين البلدان العربية وتنسيق جهود التعريب.

٨-اهتمام الدول العربية بصد التيارات الاستعمارية المضادة لتعليم اللغة العربية في الدول الحديثة الاستقلال.

هل اللغة العربية صالحة للتدريس الجامعي؟

اللغة العربية صالحة للتدريس الجامعي للعلوم الإنسانية وهي صالحة كذلك لتدريس العلوم الحديثة لكن يلزم في هذا التدريس الاستعانة بلغة أجنبية.

والمشاكل التي تعترض الأساتذة هي

١-عدم وجود المراجع العلمية والتقنية العربية.

٢-نقص المصطلحات العلمية والتقنية العربية.

٣-اختلاف المصطلحات بين الدول العربية.

٤-ضعف الأساتذة والطلاب الجامعيين في اللغة العربية.

٥-تقصير الجامعات في ميدان البحث العلمي.

٦-عدم تعاون الجامعات وحتى كليات الجامعة الواحدة على اختيار المناهج والمراجع والكتب الدراسية.

الحلول المقترحة

١-تكوين المكتبة العلمية بترجمة الكتب التي تختار للتدريس من المؤلفات الأجنبية بالإضافة إلى تشجيع حركة تعريب المراجع العلمية المختارة وعقد حلقات دراسية جامعة لمشكلة المعجم العربي يشترك فيها فقهاء اللغة وأساتذة العلوم على مستوى الدول العربية مع العمل على إصدار اللجنة المختصة التي تحتاج إليها الجامعات ومراكز البحث الخ...

٢-السرعة في عمل تعريب المصطلحات بكيفية موازية لسرعة تطور العلم.

٣-إصدار كتب دراسية جامعية موحدة بين الدول العربية واشتراك الجامعات العربية في إيجاد المصطلح العلمي الملائم.

٤- تنسيق الجهود بين مختلف لجان الجامعات ونشر البحوث المترجمة لتعميم الفائدة.

كيف يمكن للعالم العربي أن يتخلص من مشكلة المصطلح العلمي؟

١-اختلاف المصطلحات ينبغي القضاء عليه بالإكثار من عقد المؤتمرات العلمية.

٢-ينبغي للمصطلحات أن يضعها المتخصصون من أعضاء المجامع اللغوية

لإقرارها مع السرعة في عمل تعريب المصطلحات.

٣- توحيد المصطلحات العربية تحت إشراف الجامعة العربية أي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبمعاونة أعضاء المجامع الثلاثة بالقاهرة ودمشق وبغداد مع تحديد مدلولها وتوضيح مفهومها العلمي.

٤- تتبع الأساتذة لما تقره المجامع اللغوية من المصطلحات وتطبيقهم إياها في تدريسهم وتأليفهم.

٥- قبول المصطلحات العلمية العالمية بألفاظها اللاتينية كما تقبلها جميع اللغات الحية وضمنها الروسية.

٦- الاقتصار على التعريب الحرفي للمصطلحات ذات الطابع الدولي وتوفير الجهد على المجامع اللغوية.

٧- الإكثار من ترجمة أمهات الكتب العالمية وإيجاد لجان متخصصة للتأليف في مختلف الفروع باللغة العربية وانعقاد لجان دائمة تابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تضم أساتذة الجامعات ورجال الصناعة من أجل توحيد المصطلحات العلمية.

٨- إدخال الألفاظ العامية التي لا يوجد لها مقابل في الفصحى مثل مصطلحات أهل الصنائع واستغلال اللغات الأجنبية التي أخذت من العربية في القرون الوسطى وبعدها ألفاظاً مازالت فيها حية إلى الآن بعد إنعدمت في اللغة العربية والتنقيب في مؤلفات القرون الوسطى العربية عن الألفاظ المولدة التي تخلو منها معاجم اللغة ووضع كلمات جديدة عن طريق الاشتقاق وتضمين مفردات قديمة معاني جديدة.

٩- قيام مكتب التنسيق بمهمة التوجيه والتعميم.

١٠- نشر معجم للمصطلحات التقنية الأجنبية مع جميع مقابلاته العربية.

١١- إصدار قاموس عربي علمي عصري تساهم فيه جميع الهيئات العلمية بالوطن العربي.

١٢- عقد حلقات على نطاق الوطن العربي لبحث مسألة تحديد اللغة العربية تحت إشراف مكتب تنسيق التعريب.

ويعد المكتب الآن مشروع ثوريا للنهوض بسرعة وعلى أوسع نطاق بهذا العبء طبقا للمنهجيات الحديثة . فنظرا لما أوصت به الحلقة الدراسية لاستخدام الحاسب الإلكتروني في مجالي البيلوغرافيا والتوثيق في ١٩٧٥/١١/٢٩ قام المكتب بوضع مشروع لاختزان المصطلحات العلمية والتقنية المستخلصة من الخمسين معجما التي أصدرها المكتب لحد الآن في الحاسب أو الدماغ الإلكتروني بصورة تضمن الإضافة أليليها والتصحيح والتغيير والاسترجاع بعد التصديق عليها في مؤتمرات التعريب، وذلك بتوزيع هذه المصطلحات على الأشرطة المغنطية انطلاقاً من شفرة رائدة code indicatif تمكننا من إعداد قوائم جديدة بصورة آلية للمصطلحات المتعلقة بمختلف القطاعات التقنية، التي نود أن نستكمل بها المصطلحي التكنولوجي والعلمي في اللغة العربية.

تلك بعض الوسائل المستعجلة التي يجب توفرها بتضافر الدول العربية من أجل إحلال لغة القرآن المقام الأمثل الذي كان لها في العصور الوسطى كلغة علم وحضارة.

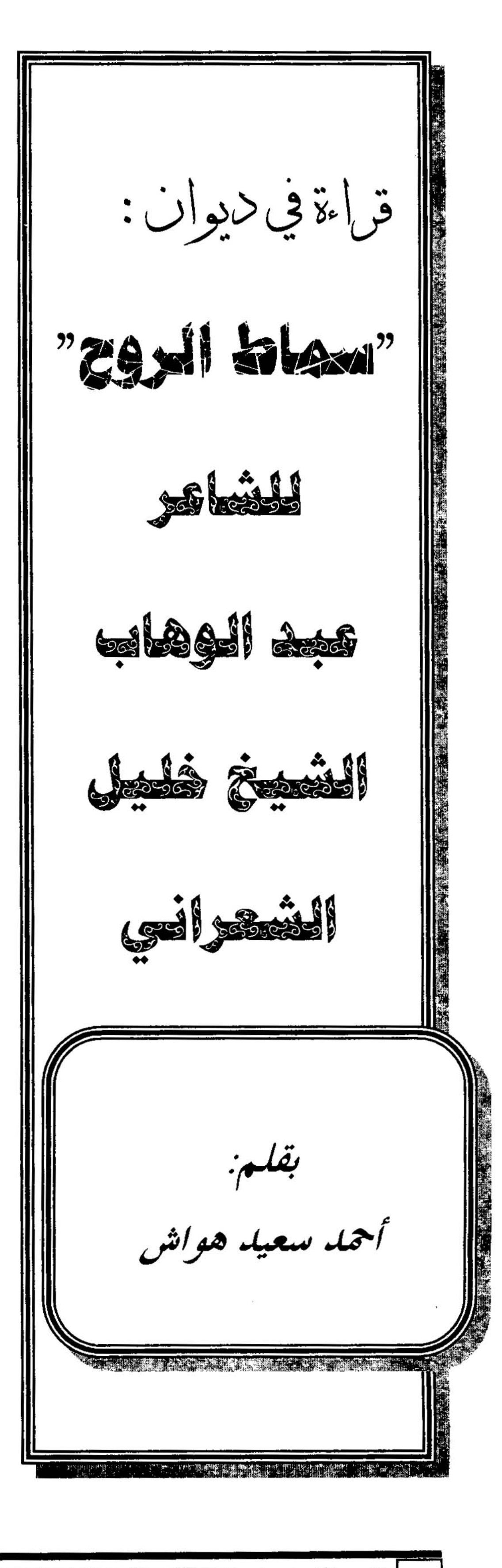





شعر: رجب كامل عثمان

اكتبي ميثاق حبي … بعد موتي واقرئيهِ
واذكري للناس أني … عشت عمري أفتديهِ
واكتبي ما قلت شعراً … في هوانا واحفظيهِ
واقرأي في كل سطر … كم أنا أهوى وتيهي
ثم عودي بعد حين … كل حرفٍ ردديهِ
واجمعي ورداً وحباً … فوق قبري وانثريهِ
واذرفي دمعاً وقولي … كيف لا أبكي عليهِ
مات يهواني حبيبي … كنت أغلى ما لديهِ
واذكري يوم التقينا … كيف كنا نبتغيهِ
بعد هجرٍ دام عمراً … كان جمراً نصطليهِ
واذكري كم كان حلواً … حبنا الغالي اذكريهِ
وانظري في كل وجه … ثم عني إسأليهِ
قد يقول البعض منهم … شاعرٌ يهذي دعيهِ
لم يكن يهواك لكن … كان وهماً فاحذريهِ
إن أساؤوا الفهم قولي … صادق ما يدعيهِ
قد يموت القلب لكن … لن يموت الحب فيهِ



في المقدمة الرصينة الجامعة للأستاذ الباحث عبد الرزاق الأصفر لديوان: "سماط الروح" للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، اجتمع سحر البيان مع الموهبة الشعرية التي وهبها الله تعالى لصاحب الديوان (سماط الرّوح) الذي استمد هذا العنوان الجميل المعبر من زيارته للكعبة المشرفة في مكة المكرمة..

ولا بد من ذكر ما يحمل صاحب الديوان في قلبه من حب للصحراء التي درج على رمالها الصافية رسولنا العربي الكريم محمد ﷺ، هذا الحب ورثه الشاعر عن جدوده آل الشعراني كما يقول الأستاذ عبد الرزاق الأصفر: "وأسرة الشعراني هذه عريقة في العلم والدين، اشتهر منها في القرن العاشر الهجري الموسوعي في الفقه والتصوف والوعظ، وتوفي في القاهرة عام ١٥٦٥م"

وقد جاء الديوان بأكثر من مائة وخمسة وأربعين صفحة من القطع الصغير واحتوى بين دفتيه على أكثر من خمسة وأربعين قصيدة جاء معظمها على نهج الخليل ابن أحمد الفراهيدي..

وقد تميز صاحب الديوان بصدق العاطفة والشاعرية الأصيلة، وقد أشار الأستاذ شوقي كيلاني لذلك فقال:

".. كان لإقباله على الشعر العربي الأصيل أكبر الأثر في إشراق ديباجته ووضوح معانيه ويسر قافيته وسهولة ألفاظه.."

وفي هذه العجالة نستعرض بعض قصائد هذا الديوان الغني بمواضيعه وبديعه..

وأول ما تقع عيننا عليه الإهداء الجميل لمدينة "حماة" مدينة أبي الفداء، مدينة النواعير:

بعضٌ من الرَّعشاتِ كان نصيبها

قلمٌ يُسطِّرها على الأوراقِ

فترنَّحتْ بين الشفاهِ وخافِقٍ

نذَرَ الحياةَ لِمُلهمٍ خلاقِ

فإليكها حيرى تُلَملِمُ سِرَّها

ليذوب بين خمائلِ الأحداقِ

أحماةُ يا نوحَ النواعير التي

سَكِرتْ بخمرةِ دمعها المهراقِ

ولقد خصَّ شاعرنا – حماة- بأكثر من قصيدة يذوب فيها حباً وشوقاً لمسقط رأسه حماة، ولم يقتصر حب الشاعر لمدينته، وإنما فاض قلبه حباً لبلده سورية، ولأقطار الأمة العربية كافة، فها هو يبث شوقه وحبه لمصر العربية ولنيلها الفياض الذي أحيا أرض الكنانة فجعلها خضراء خصبة، فتكونت حضارة على ضفتي النهر المبارك:

يا مصر عفوك يا سمراء أسكرني

واجعل اللحن آية والنشيدا

وتبتل في حضرة القدس وجداً

إنَّ وَجْدَ الوصال يوحي السجودا

إلى أن قال:

إنها القدس هل سمعتم نداها؟

هل شهدتم مُصابها المشهودا

كل يوم مَسْرى الرسول مُهان

إن مسرى الرسول أضحى طريدا

وهو يدعُ لتحرير القدس من محنتها وبذل النفس والنفيس في سبيل ذلك الواجب المقدس فقال:

أيها القوم هل سمعتم؟ فهبوا

من جميع الآفاق جنداً أسودا

حلو كبّروا، تنادوا تفانوا

حرّروا القدس واجعلوا النصر عيدا

والشاعر يفتخر بشاعريته وموهبته، ولطالما افتخر بها الشعراء من قبل، إنها الموهبة ذلك الفيض من الأحاسيس المعبرة عن مكنونات النفس البشرية الشاعرة:

فيا صاحبي ما صنعتُ يوماً مشاعري

ولا زينتُها لكنما الله زيّنا

حباني قيثار الأناشيد راعشاً

وأغنى شعوري بالخيال ولوّنا

ولعل الحسن والجمال الأنثوي الأخاذ مما يلهب قلب الشاعر المحب فيفيض شعراً عذباً رقراقاً على لسانه:

ولولاك يا حسناء ما فاض خاطري

ولا ذاب قلبي بالصبابة والعنا

ولولا حنان الشعر ما كنتُ كالندى

يخضّل أوراداً عذارى وسوسنا

وشاعرنا وفيٌّ للأصدقاء وزملاء القافية ورفاق الصبا، وكان الشاعر علي دمر أحمد هؤلاء الشعراء الذين افتقدتهم مدينة

جمـالٌ فـوق مـا تسعُ العيون

وسـحرٌ لا الخيـال ولا الظـنون

وآيــات مـن الألحـان تُتـلى

وبـاب الـنهر أبدعـه الفـتون

وأهـداب الصفصاف تميس فيها

صـبايا الحَـوْر أدَّقهـا الحـنين

إلى أن قال واصفاً الناعورة والعاصي:

هـي الـناعورة السكرى حنيناً

تـدور وئيـدة لا تسـتكين

تعشـقتِ الحـبيب العـذب دهراً

عـناقهما بشـرع الـنهر ديـن

هـو العاصـي يورثـنا طـباعاً

تُشـانُ الـنيّرات ولا تشـين

وسـيبقى حـب حمـاة وعاصـيها ونواعيـرها متواصـلاً على مدى العصور وما حـب ابـن حجة الحموي وعبد الوهاب الشيخ خليل لمدينة حماة ووصفهما لأفياءها وطبيعتها السـاحرة ونهرها الرقراق الرحيب ونواعيرها النائحة إلاَّ الدليل الواضح عن ذلك الحب الذي يكـنه جميـع شعراء حماة قديماً وحديثاً لذاك الـوادي الأخضـر الـذي تـتربع على ضفتيه عـروس العاصـي حماة، ورحم الله ابن حجة الحموي القائل:

فيـا سـاكني مغـنى (حماة) نعمتمُ

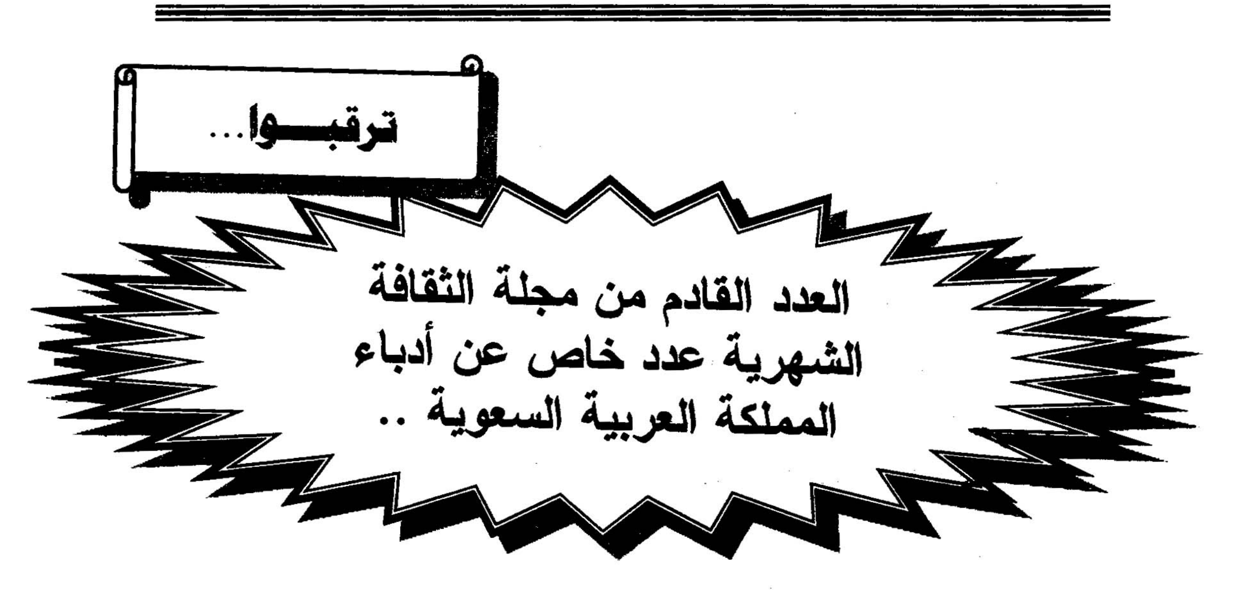
صباحاً ولو ألغيتم في الهوى ذكري

وللشـاعر عـبد الوهاب الشيخ خليل أكـثر ثلاث قصائد منها ديوانه (سماط الروح) في حب حماة وعاصيها:

أنا غرسة العاصي حملة طباعه

شـموخاً ونـبلاً وانتساباً وموقفا

هنيـئاً للشـاعر المـبدع عبد الوهاب الشيخ خليل بانتمائه ونبله وشاعريته.



الراحل الباقي

الأب

أنطون

يوسف

بولاد

بقلم:
حكمت هلال

ولد أنطوان بن يوسف بولاد في دمشق عام ١٧٩٤، وترعرع فيها، وعاش في كنف عائلة ثرية ذات شهرة واسعة، وشبّ أنطوان على حب الفضيلة والقداسة،والاشتغال بأمور الدين، والتقرب إلى الأكليروس، وجاهد الجهاد الحسن في الدفاع عن مذهبه الكاثوليكي، ويذكر التاريخ أن مدينة دمشق التي عانت من الصراع المرير مع الاستعمار التركي، وقد تجلت تضحية الآباء المخلصين- وفيهم الأب أنطوان- الذين ذاقوا مرارة النفي والتشرد والاضطهاد من قبل الأتراك العثمانيين، في دفاعهم المستميت عن طائفتهم، بالغرم مما عانوه من أذى وظلم المستعمر الغاشم.

رغب أنطوان بن يوسف بولاد في حياة الرهبنة، وأحب العيش في دير المخلص، والانقطاع للتبتل والعبادة فيه، وقد قوبلت رغبته بترحاب بالغ وقبول حسن، لما يتجلى على محياه من دلائل الذكاء وصدق الإيمان وعلامات التفوق والنبوغ، وكان ذلك في ١٥/شباط/ ١٨١٥، وأخيراً رسّم كاهناً في ١٦ /نيسان/ ١٩٢٢ بعد أن أتمّ دراسته بنجاح وتفوق .

كان الناس ينظرون إلى هذا الأب الفاضل نظرة حب وإعجاب وتقدير، ويتوسمون في قسمات وجهه الخير كل الخير، ويبنون عليه الآمال الكبار، وبالتالي أخذت

الرهـبانية المخلصـة تقـلده الوظائف المهمة فيهـا، وتسـند إليه الأعمال الجليلة، وقد كان أنطـوان شمّاساً عندما عهدت إليه سنة ١٨٢١ رئاسة دير القدسية تقلا في عين الجوزة، وفيه تجـلت مواهـبه الفـذّة، وأصبح - بعد ذلك - مديراً عاماً للمجمع عام ١٨٢٧وعام ١٨٣٠، وتقـلّد إدارتـه سبع مرات مع المهامّ الأخرى المسندة إليه.فقد أسند إليه عمل وكيل المدرسة المخلصية عام ١٨٣٦، وأخذ المعهد يسير في عهـده بـتقدم مطّـرد، وازداد عـدد الطلاب المقـبولين فيه، وكان يدرس في المعهد نخبة مـن كـبار المعـلمين الأجلاء، كالشيخ بشارة الخـوري، والأب فلابيانوس نعمة، ومكاريوس حـداد، والأب نقـولا جسـطر الملقب بالمعلم، وغيـرهم من المعلمين القديرين المميزين في ذلـك العصر، وكان الأب أنطوان بولاد يشرف عليهم، ويوجههم بتعليماته وتوصياته.

ازدهـر المعهد في عهد الأب أنطون، وكثر عدد طلابه، وقد تواجد فيه أكثر من مئة طـالب، كانوا عاكفين على الدرس والتحصيل، واكتسـاب العـلوم اللاهوتيـة، واستدعى هذا النجاح الباهر بإدارة الأب بولاد وجهوده الفوز بشهادة رسمية موقعة من قبل أنطون كتافاغر قنصـل النمسـا فـي صيدا، وجوزيف كونتي القنصل الفرنسي، وفيها:

(إنـنا رأينا في الدير والمدرسة السعي الحـثيث لتعـليم اللغة العربية الفصحى، وعلم البيان، والمنطق، واللاهوت، والترنيم الكنسي، والأكليريكية المخلصية، وقد نجحت بفضل الأب بـولاد، الـذي وسع مكتبتها، وزوّدها بأفضل الكـتب والدراسات، حتى أصبحت منارة يهتدى بهـا، ومركـزاً هامّـاً يزوّد المنطقة والطائفة بالعلم والأدب والثقافة).

وفـي مجمع ١٨٥٥ انتخب الأب بولاد مديـراً أول للمدرسة، وقبل الوظيفة بعد رفض دام طويـلاً، وقـام بمهمـته على أكمل وجه، وانخرط في سلك التعليم في المدرسة مع غيره مـن المعلمين، وتعهد أثناء ذلك بترميم الدير، وتحمل نفقات الترميم على حسابه الخاص.

وتذكـر الوثائق أنه لما استعصى أمر الخلاف بين الاخوة، في مجمع سنة١٨٤٢ عاد إلى دمشـق، واعـتكف فـي بيـته، بين أهله وذويـه، وانقطـع للـتأمل والعبادة والتأليف، وحين طلب منه أن يكون رئيساً عاماً، ويتسلم الإدارة، رفض أشد الرفض، وأبى هذا المنصب الكـبير، مـتفرغاً للرهبانية، مخلصاً لها، همه الوحيـد تكـريس جهـده وعمره في خدمتها والإخلاص لمبادئها.

يعد الأب أنطون بولاد من كبار العلماء الذيـن يفـتخر بهـم الوطن، ويعتز بجهودهم ومؤلفـاتهم، وقـد كانت مؤلفات الأب تنمّ عن حـس مـرهف وتفكير عميق، وأسلوب شيق رشـيق، بـلغ بهـا مرتـبة الشيوخ العلماء، وعكسـت مـثالاً رائعـاً لفكـره وأدبه وفنه،

ونموذجاً راقياً لأخلاقه التي اتسمت بالفضيلة والكمال الرهباني، والتفاني في العمل، والتضحية من أجله.

ومن أهم مؤلفاته:

١-راشد سوريا: طبع في بيروت سنة ١٨٦٨ جمع فيه مختارات من كتب الأدب، أمثال: ملخص لكتاب الصبح المبني عن حيثية المتنبي، ورسالة الحاتمي فيما أخذه المتنبي من حكم أرسطو، وضمنها شعره بألفاظ سهلة وتراكيب جزلة، وقد مهد الأب له بنبذه تاريخية حتى عصره، وأهداه إلى أحد ولاة سوريا.

٢-خلاصة تاريخ البطريركية الأنطاكية، واتحاد أبنائها مع الكنيسة الرومانية.

٣-ملحق لكتاب التختيكون: للقس يوحنا عجيمي، أضاف الأب بولاد إليه بعض الملاحظات القيمة، وزوّده بتاريخ الطائفة بدءاً من سنة ١٧٥٦ حتى سنة ١٨٧٠ مع خلاصة غنية بأخبار الرهبنة والرهبان.

٤-الخلاصة الوضيّة عن الرهبنة المخلصية.

٥-رسائل كثيرة محفوظة في دير المخلص.

٦-الشجرة الكابلية: وتشمل تاريخ الطائفة.

٧-ترجمة رسالة في تعريف أخبار العلوم وأصل منشئها ومخترعيها في العالم والجدير بالذكر أن أسرة بولاد هي عائلة دمشقية عريقة، وتسكن في حي من أحياء دمشق، وهو حي باب توما، وفيه حارة تدعى: حارة بولاد، ومازالت موجودة إلى الآن.

تعنى كلمة((بولاد)) صانعي الأسلحة الدمشقية، وقد اشتهرت أسرة بولاد بهذه الصناعة، وكانت الأسلحة المصنوعة الموسومة باسم بولاد متميزة عن بقية الأسلحة الأخرى بجودتها وإتقانها ودقة صنعتها، وقد توفي هذا الأب الفاضل عام ١٨٧١ .

وبالجملة، فإن الأب بولاد أمضى حياته بالزهد والتبتل، والرصانة والورع، يغلب على حركاته وتصرفاته الحياء والاحتشام، إلى حد أنه كان جاداً في كل شيء، لم يعرف عنه الضحك المفرط، أو المزاح الذي يخرجه عن الوقار، وكانت دائماً تتجلى على محيّاه النبيل سمات الكمال وآيات الاتزان، وعلاوة على هذه الصفات السامية، كان ابناً بارّاً بالرهبانية التي التجأ إلى حماها، وعاش في كنفها، وأخلص لها كل الإخلاص، كما كان محباً للخير، ساعياً وراء الحق، لا يحيد عنه قيد شعرة، الأمر الذي جعله ينجح في جميع مهامه ومساعيه.

ونشير إلى أن البحاثة إلياس بولاد مهتم الآن بتاريخ أسرته العريقة، وهو عاكف على إعداد كتاب يتحدث فيه عن تاريخ هذه الأسرة، يؤرخ لأعلامها ومشاهيرها.



بقلم:
هفاف ميهوب

بعد إن أنفق من عمره خمسين ألف سنة، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان، ومبادئه في مختلف عصور التاريخ، والجمال يختلف في معناه ومضمونه من حضارة لأخرى، ومن فترة زمنية إلى سواها.

فما هو الجمال...؟ ولماذا تفتتن به..؟ لماذا نحاول أن نبدعه نحن بني البشر جميعاً سواءً كنا رجالاً أو نساءً، عامةً أو ملوكاً..؟ فقراءً أو أغنياءً..؟

لقد تجلت أول صور الجمال لدى الإنسان البدائي من خلال استخدامه للأصباغ التي كان فيها وسيلة تجميلية ولفت النظر إليه دون سواه، وكان استخدام الصباغ في بداية الأمر حكراً على الرجال دون النساء ولا سيما في استراليا وماليزيا وغينيا الجديدة وكالدونيا وبريطانيا الجديدة. وكذلك هنود أمريكا الشمالية. حيث أنه في بعض القبائل كان تجميل الجسم بالأصباغ يستنفذ وقتاً أكثر من أي وقت تستهلكه مهمة أخرى مهما كانت كبيرة .

بدأ الرجال بصباغة أجسادهم من أجل جذب النساء من ناحية ومن أجل إخافة الأعداء منهم من ناحية أخرى. وكنت ترى الرجال من أهل استراليا يصبغون أجسادهم ويتجملون بشكل يجعلهم يفوقون فيه أحدث فاتنة من فاتنات أمريكا اليوم .

والرجل كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء، والحمراء، والصفراء ما يكفيه ليصلح من جماله حيناً بعد آخر، وكلما زالت أثار عملية التزيين والأصباغ التي كان

يقوم بها لنفسه. وعندما توشك أصباغه على النفاذ من كان لا يتوانى عن القيام برحلات بعيدة وخطيرة من أجل أن يزود نفسه بكمية جديدة.

أما عن فترة الصباغ والتزيين فلقد كان يقوم بها الرجل في كل الأوقات، لكنه يكتفي بالأيام العادية من حياته بوضع بعض بقع لون على خديه وكتفيه وصدره، ويترك صباغة جسده كله من قدميه إلى أعلى جسده إلى أيام الأعياد والمناسبات، وكان هذا الصباغ يختلف من مكان إلى آخر فترى الرجل في اليابان إذا ما كان ذو منزلة اجتماعية، يحمر وجنتيه، ويضع المساحيق على وجهه، ويعطر ثيابه، ويحمل معه مرآة من ذهب . وكان معظم الرجال يحلقون مقدمات رؤوسهم، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة، وكانت اللحى ضرورة للرجال، رغم قلة شعراتها، ورغم أن لحاهم كانت صناعية، وفي البيوت المتميزة بمكانتها كانوا يقدمون للضيف ملقطاً يسوي به لحيته.

وبالرغم من أن هذا الفن من التزيين كان حكراً على الرجال إلا أن هذه العملية التزينية بدأت تسري في صفوف النساء، يوماً بعد يوم، وهكذا حتى غدت النساء في افر يقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم في تجميل أنفسهن، فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية حيث يلففنها طوال الليل في أوراق الحناء .بالإضافة إلى صبغ أسنانهن بالأصفر والأزرق، وطلي شعورهن بالطلاء الأزرق، ويخططن جفونهن بالكحل، ويحملن في حقيبة أدوات التجميل مشابك شعر على شكل رماح وخواتم وأجراس وأزرار ومشابك، ويبدو لهن الأمر بأن هذه العملية التي بدأ الرجل بممارستها كانت لهن بالأصل لأنهن سبقن الرجال فيما بعد في إتقانها.

لكن هذه العملية التجميلية قد باتت مملة لدى السذج الأولين من الإغريق، وذلك بسبب سرعة زوالها، وسرعان ما ابتكروا أساليباً أخرى أكثر بقاءً وجمالاً كعملية الوشم والوصم حيث كان الرجال والنساء في كثير من القبائل يسلّمن أنفسهم للإبر الصابغة ويتحملون من غير تململ أو ألم حتى عملية وشم شفاههم التي تتم بواسطة وخز الجلد أو جرحه ومن ثم حقنه بأصباغ ملونة. ولقد لا حظ الكابتن (كوك) في القرن الثامن عشر أن سكان جزر بحر الشمال كانوا يصنعون ألوان وشمهم من رماد بندق الأرض المحترق ويغرسونه بإبر من العظام وفي عام ١٨٨١ بدأ الوشم ينتشر في كافة أنحاء أوربا، وكانت هذه الحالة تعتبر حالة من حالات انبعاث القديم فهي لا تكاد تخبو حتى تظهر من جديد وتنطوي على مجازفات غريبة، فلقد حدث أن عاشقاً أوربياً وشم على صدره بأكبر خط ممكن عبارة (أحبك يا تانا) ولكن (تانا) تركته بعد أسبوع من علاقتها معه وبقي الوشم الذي يغطي مساحة كبيرة من الجلد تمنع التعرق في الأيام الحارة، وتسبب الكثير من الضيق والأذى.

لقد انتشرت عادة التجميل بالوشم مدة طويلة في مختلف أنحاء العالم وتطورت بشكل كبير لدرجة أن اليونانيون كانوا يعتبرونها دليل رفعة ونبالة، وبلغ الأمر في اليابان أنه أقيم في طوكيو مرسم خاص جداً يعيش فيه أستاذ الوشم الشهير(يوشيهيتو نا كاتو) يستغرق في رسم لوحة واحدة بالوشم على رسم جزء كبير

مـــن الجسم حوالي سنتين، وهذه اللوحة كانت تكـلف مقتـنيها خمسة آلاف جنيه إسترليني. والظاهرة لا تتوقف على اليابان وحدها لعرض مـــثل هــذه اللوحات، ففي أوربا تنتشر لوحات الوشـــم عـــلى سائر أنحاء الجسم، وفي أمريكا يطلقون على هذا الفن اسم (البدائية الحديثة) .

إلا أن الإنســـان كعادتـــه سريع الملل، محب دوماً للابتكار والتجديد، فلقد رأى هؤلاء أنهم لم يحققوا من عملية الوشم ما أرادوه من وضـــوح وتأثير، لذلك بدأت بعض القبائل وفي كـــل قارة بوصم الجلد بوصمات عميقة ليكونوا أجمـــل مـــنظراً في أعين الأخريين، فيجرحون أجســـادهم بحجر الصوان أو قواقع المحار، ثم يضـــعون فـــي الجرح كرات من الطين لتوسّع المكان الموصوم .

عـــلى سبيل المثال كان أهالي (مضيق كورس) يثخنون في أجسادهم وصمات ضخمة، وكذلـــك قـــبائل (ابيوكوتـــا) كـــانوا يجعـــلون وصماتهم بشكل شبيه بشكل الضب أو التمساح أو السلحفاة .وهم لا يكتفون بذلك بل يضيفون إليـــه وضع أقراط في الأذان والأنوف بشكل لا غـــنى عنه، حتى أن بعض القبائل كانت تعتبر مـــن يموت دون أن يكون هناك قرطاً في أذنه سيلاقي في الآخرة عذاباً عظيم .

لكـــن يمكنـــنا القول مع ازدياد معرفتنا بالحضـــارة، ومع المسافة الهائلة بين الماضي والحاضـــر، والهمجـــي والمـــتمدن أن هؤلاء الـــبدائيون الســـابقون لعصر الحضارة، خلقوا لـــلعالم أجمـــع من هذه الوسائل صور وأسس جديـــدة، ابـــتكرتاها ولا زلـــنا نعتمد عليها في حياتـــنا الطويلة ومجتمعاتنا المختلفة، والدليل عـــلى ذلـــك أن الحضارة المصرية القديمة قد طـــورت هـــذا الفـــن واستخدمه فيها رجالهم ونسائهم، عامة شعبهم، ملوكهم وملكاتهم .

وتؤكـــد لـــنا تمـــاثيل المصريين ذوات العيـــون المكحلة من رجال ونساء ذلك، إضافة إلى مـــا تركه هؤلاء من آثار لا زالت تبدو في قـــبور موتـــاهم مـــن كميات كبيرة من أدوات الزيـــنة والمـــرايا وأدوات تجعيـــد الشـــعر، وصـــناديق الأدهـــان، ويمكن القول أن الكحل الـــذي تســـتعمله النساء في هذه الأيام للتزيين صـــورة مـــن الـــزيت الـــذي كان المصريون يستخدمونه في غابر الأزمان .

ربمـــا تتمـــلمل نساء المجتمعات التي تخطو يوماً بعد يوم سلم الحضارة عندما تسمع عـــن هـــذه العادات وتصاب بحالة من التساؤل والاســـتغراب تجعلها تشعر بالاشمئزاز، وربما كـــان الـــرجل المتحضر يداخله شعور بالغربة وتدني الوعي واستنكار البدائية الهمجية، ولكن هل ينسى هؤلاء أن هذه العادات والأساليب في فـــنون الـــتزيين والتجميل لا زالت حتى وقتنا الحالي تمارس وفي كل مجتمع من المجتمعات دون اســـتثناء، لكـــن مثلما الماضي لكل منهم طريقـــته وأســـلوبه الخاص الذي يعبر به عن عاداتـــه وجمالـــه وحضـــارته... علماً إن هذه الفـــنون أصـــبحت مـــن أساس حياتنا، كيف لا ونحـــن نـــرى الملاييـــن من الرجال والنساء، يـــنفقون الكثير من الأموال حتى لو اضطر بهم الأمـــر إلى تغيير جلودهم، بل للاستسلام حتى لمباضـــع الجـــراحين لإجراء عمليات التجميل والتزيين والوشم، غير مبالين بأي ألم أو تكلفة مقابل أن يصبحوا الأجمل .




وردة بالخدِّ أم خجلُ

شعر: أثير الدين الأندلسي

عـــــاذلي فــــي الأهيـــف الأنِـــس
لـــــو رآه كـــــان قـــــد عــــذرا

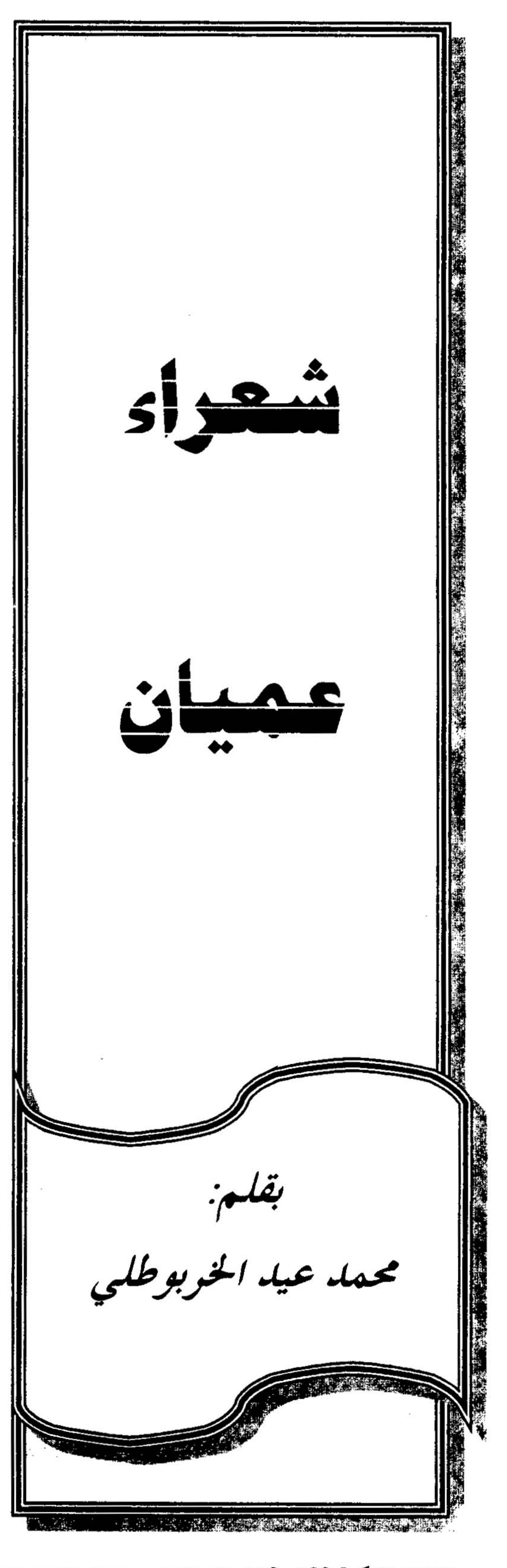
رشـــــأٌ قـــــد زانـــــه الحَـــورُ
غصُـــــنٌ مـــــن فوقـــــه قمـــــرُ
قمـــــرٌ مـــــن سُـــحبه الشـــعَرُ
ثغـــــرٌ مـــــن فيـــــه، أم دُرَرُ..

رجّـــــةٌ بالــــــردف، أم كســــــلُ
ريقـــــةٌ بالـــــثغر، أم عســــــلُ
وردةٌ بـــــالخدّ، أم خجــــــــلُ
كحَـــــل بـــــالعين، أم حـــــورُ..

مـــذ نـــأى عـــن مقلـــتيَّ "ســـني"
مـــا أذيقـــا لـــذّة الوســـنِ
طـــال مـــا ألقـــاه مـــن شـــجنِ
عجـــباً ضـــدّان فـــي بـــدنِ:

بفـــــؤادي جَـــــذوةُ القَـــــبسِ
وبعيـــــني المـــــاءُ مُـــــنفجرا..



لــم تكن إعاقة البصر بارزة لدى كثيرٍ مــن المكفوفين عبر التاريخ، وخاصة الشعراء العــرب الذيــن تجلت روعة اللغة العربية على ألســنتهم فألبسوها حُللاً من الجمال والعُذوبة، فأعطــتهم جمالهــا وألقها،فزودوها بقصائدهم الحية في حياتهم وبعد مماتهم ..

ومن هؤلاء الشعراء العرب المكفوفين:

أبو العيناء

محمــد بــن القاســم أبو العيناء، ولد بــالأهواز عــام ١٩١هــ وتوفي ببغداد عام ٢٨٣هــ.

كــان شــاعراً أديــباً وأخبارياً وعُرف بظرافته وحسن تندره وسرعة إجابته وذكائه.

قــال ياقوت: "كان من ظرفاء العالم، فصــيحاً بــليغاً، آيــة في الذكاء واللسن، من شعره:

إن يأخذ الله من عيني نورهــما
ففي لساني وســمعي منهما نور
قلب ذكي وعقــل غير ذي خطل
وفي فمي صارم كالسيف مــأثور

التعاويذي

أبــو الفــتح محمــد بن عبد الله بن الــتعاويذي ولــد عــام ٤٧٩هــ وتوفي عام ٥٨٣هــ ببغداد، كان شاعر العراق في وقته، ولــه مراســلات مع غيره، وشعره كثير، في

معظمه يندب بصره وزمان شبابه، وشعره في مجلدين قال:

فها أنا كالمقبور في كسر منزلي
سواء صباحي عنده ومسائي
يرق و يبكي حاسدي لي رحمةً
وبُعداً لها من رقةٍ وبكاء

<u>الحصري</u>

أبو الحسن علي الحصري، وُلد عام ٤٢٠هـ بالقيروان، وتوفي عام ٤٨٨هـ وهو صاحب أشهر قصيدة في الغزل التي استحوذت إعجاب كل النقاد والأدباء، وقد عارضها كثير من الشعراء، وكان عالماً بالقراءات وعالماً بفنون العربية، ترك تونس وقصد الأندلس بعد الفتنة، فطلب صحبته الملوك والأمراء وهادوه، ومطلع قصيدته الغزلية "ياليل الصب":

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده
رقد السمار فأرقه
أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له
مما يرعاه ويرصده

<u>البصير</u>

أبو علي البصير "الضرير"

قالوا عنه: "لا نرى مفتوح القلب في النحو إلا هذا المغمض العينين"، فقد كان إماماً في النحو ودرس في بغداد وحضر مجالس الوزراء، من شعره قوله:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي
ويقتادني في السير إذ أنار راكب
لقد يستضيء القوم بي في وجوههم
يخبو ضياء العين و القلب ثابت

<u>المعري</u>

أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري، ولد في معرة النعمان عام ٣٦٣هـ وتوفي عام ٤٤٩هـ،كان شاعراً، فيلسوفاً، ساطع الجمال، غزير الفضل، شائع الذكر، وافر العلم، غاية الفهم، عالماً باللغة، حاذقا بالنحو، جيد الشعر، شهرته تغني عن صفته، وفضله ينطق بسجيته، له مؤلفات كثيرة أشهرها (سقط الزند) و (رسالة الغفران)، ذهب بصره وعمره أربع سنوات، ولما مات رثاه على قبره أربعة وثمانون شاعراً، قال: "أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر"، و لما أراد صاحب مصر أن يعطيه مالاً رفض وقال له:

لا أطلب الأرزاق والمولى
يفيض عليَّ رزقي
إن أعطَ بعض القوت
أعلم أن ذلك ضعف حقي

<u>الوثابي</u>

إسماعيل بن محمد الوثابيّ من أصفهان، توفي عام ٥٣٣هـ.عرف بالأدب

والشعر، قال السمعاني: "ما رأيت بأصفهان في صنعة الشعر والترسل أفضل منه" كان سريع البديهة في النظم والنثر. قال:

وما ساءني وَجْدٌ ولا ضرني هوى
كما ساءني هجرٌ تعقّبه صَدُّ
وإن كان عهد الوصل أضحى نسيئة
فهاك ليلَ البرق إذ عهدَه نَقْدُ

النيسابوري

الحسن بن المظفر النيسابوري، توفي عام ٤٤٢هـ، كان أديباً نبيلاً وشاعراً ذكياً، مؤدباً لأهل خوارزم، خلّف عدة كتب وشعره في مجلدين. قال:

أريّا شمالٍ أم نسيم من الصبا
أتانا طُروقاً أم خيالٌ لزينبا؟
أم الطالع المسعود طالعَ أرضنا
فأطلع فيها للسعادة كوكبا

ابن ثروان

الخضر بن ثروان، ولد بميا فارقين عام ٥٠٥هـ، و توفي عام ٥٨٠هـ في بخارى، كان عالماً بالنحو، مقرئاً فاضلاً وأديباً عارفاً حسن الشعر،من محفوظاته الكثيرة المجمل وشعر الهذليين وشعر رؤبة وذي الرقة. قال:

مواعظ الدهر أدَّبتني
وإنما يُوعظ الأديبُ
لم يمضِ بؤس ولا نعيم
إلا ولي فيهما نصيب

ابن الحباب

الفضل بن الحباب الجمحي ولد بالبصرة وتوفي عام ٣٠٥ هـ. ولي القضاء بالبصرة وهو أعمى، وكان يكثر السجع في كلامه، روى عن خاله ابن سلام الجمحي طبقات شعراء الجاهلية وكتاب الفرسان، وكان شاعراً. قال:

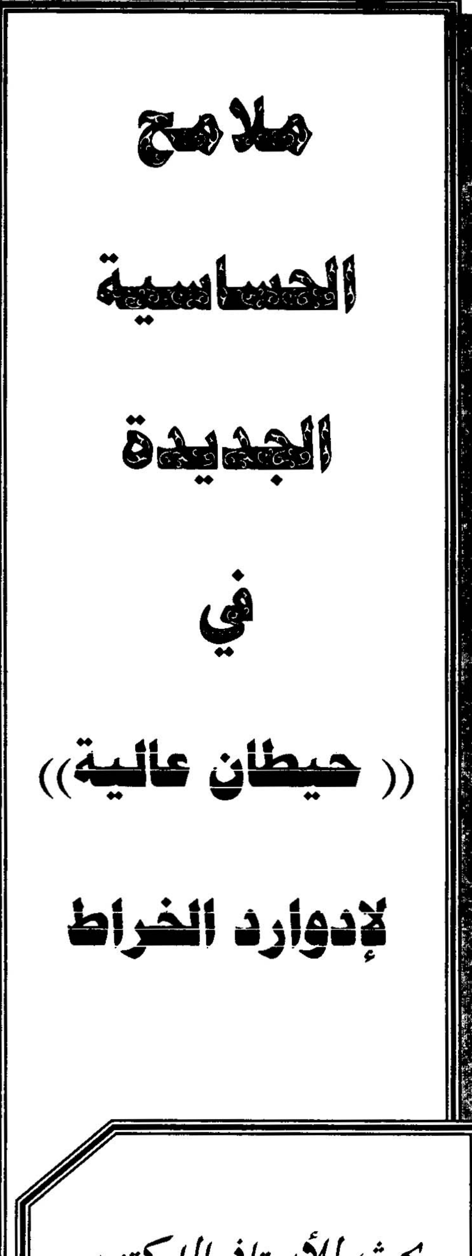
قالوا: نراك تطيل الصمت قلت لهم:
ما طول صمتي من عيٍّ ولا خَرَسِ
لكنه أحمد الأمرين عاقبةً
عندي وأبعده من منطق شكسِ
أأنشر البزَّ فيمن ليس يعرفه
أو أنثر الدُّر للعميان في الغلس

الداوودي

داود الداوودي ولد ببغداد وتوفي عام ٦١٥هـ، كان مقرئاً أديباً، وشاعراً مجيداً، وبرع في كل فنون الأدب. قال:

إلى الرحمن أشكو ما ألاقي
غداة غدٍ على هوج النياق
نشدتكم بمن زمَّ المطايا
أمرَّ بكم أمرَّ من الفراق؟
وهل داءٌ أمرّ من التنائي
وهل عيشٌ ألذ ّمن التلاقي؟

هذه عشرة أسماء قد لمعت في تاريخ تراثنا، وقد كانوا عمياناً، فهل أثر ذهاب بصرهم على بصيرتهم؟؟!!



ملامح الحساسية الجديدة في ((حيطان عالية)) لإدوارد الخراط

بحث للأستاذ الدكتور
الرشيد بو شعير
جامعة الإمارات.

بعد أن تبلورت جماليات القصة القصيرة واتخذت شكلها الناضج في أعمال كتاب من أمثال محمود تيمور، ويحيى حقي، وتوفيق الحكيم، والبشير خريف، وأحمد رضا حوحو، ويوسف إدريس، ويوسف الشاروني، وعبد السلام العجيلي، ونجيب محفوظ، وغيرهم من كتاب الأجيال الماضية، أخذت أن تستشرف آفاقاً جديدة، وتشق لها طريقاً مختلفاً، وذلك من خلال ما يسمى بالحساسية الجديدة.

ولعل هذه الحساسية الجديدة كانت وليدة التأثر بالرواية الجديدة في فرنسا، أي وليدة المثاقفة، أكثر من كونها وليدة السياق التاريخي المحلي، لأن رؤاها العديمة وأساليبها الفنية المتمردة على الأساليب الكلاسيكية تعبر عن السياق الأوربي الذي تميز بانهيار القيم الرأسمالية وإفلاس البنية العقلية الديكارتية وخيبة الآمال في مسيرة الحداثة على إثر نشوب حربين كونيتين أفرزتا كثيراً من الويلات الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية.

وفي هذه الدراسة نحاول رصد ملامح هذه الحساسية الجديدة في مجموعة قصصية لكاتب يعد من أبرز الكتاب الذين ركبوا هذه الموجة في الأدب العربي المعاصر، وهي مجموعة(حيطان عالية) لإدوارد الخراط.

ويبدو أن قصص هذه المجموعة كتبت في فترات زمنية متباعدة (١٩٥٩-١٩٩٠)، ولذلك لم تشكل اتجاهاً لافتاً للنظر في العقود السابقة التي كان كاتب كبير مثل يوسف إدريس في أثنائها متربعاً على عرش القصة القصيرة.

وأيا ما يكون الأمر، فإن ملامح هذه الحساسية الجديدة في هذه المجموعة تتراءى لنا فيما يأتي:

١- الاغتراب والرؤية التشاؤمية العدمية، وتتضح في كثير من قصص المجموعة، ففي قصة (حيطان عالية) يحس الزوج بالاغتراب عن أقرب المحيطين به، وهي زوجته التي تبدو له بعيدة منفصلة مغلقة صامتة، (لا تعرف أن تتكلم، أن تعطي لنفسها أصواتاً، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشيء آخر غير الكلام. مسدودة تماماً، كأن نفسها لم تولد أبداً، وظلت برعماً خشناً خاماً مغلقاً على عصارته الكثيفة) على حد تعبيره.

ويحاول هذا الزوج أن يهرب من سجن هذا الاغتراب والسأم باللجوء إلى المقهى، حيث يبحث عن الأمل في علاقة إنسانية حميمة كعلاقة الصداقة، وفي الطريق يكتشف بعدا آخر من أبعاد غربته، (فالباعة والعساكر والسيارات تقبض على هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيداً، إلى بعد آخر من أبعاد غربته). ثم يكتشف بعد آخر من أبعاد هذا الاغتراب عندما يجالس أحد الأصدقاء الذين نسي أسمائهم، وبالرغم من أن ذلك الصديق يحاول أن يمد جسور صداقته ويعرض عليه أن يلاعبه بالنرد، فإنه لم يستطيع أن يمنع إحساسه بالغربة والعداوة والمقت تجاه هذا الصديق الغريب الذي يظل منفصلاً عنه مغلقاً على سره، وكأنه حائط (لن تنفتح فيه فجوة).

ولم يكن الزوج غريباً عن الآخرين فحسب، ولكنه كان غريباً عن نفسه كذلك، وهو ما يفسر لنا تماهيه مع صديقه الذي كان يلاعبه في المقهى، وهو الصديق الذي يرى نفسه فيه كالمرآة العاكسة، فيرعبه ذلك و(يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجهه هو. كأنه يرى نفسه خارجاً من المرآة).

ونرى هذا الزوج الذي تفقد حياته معناها يغادر المقهى ويعود إلى المنزل، و(الحيطان ترتفع على جانبيه)، وكأنها حيطان العبث أو العدم الذي يحاصره أنى ذهب.

وفي قصة (أمام البحر)، نرى معلماً عازباً يعيش في مستنقع من السأم والاغتراب، ويتلقى تقرير نقله إلى (دمنهور) فيرى بصيصاً من أمل في تغير حياته وإعطائها معنى، وبينما كان في طريقه إلى مدرسته الجديدة يحلم حلم يقظة فيرى نفسه قلعة قديمة يبتلعها البحر، وهو ما يوحي باستحالة الأمل في عالم قاسٍ لا يبالي بمصيره.

وفي قصة (مغامرة غرامية) نرى موظفاً في البلدية يعاني من أزمة الاغتراب كذلك، ويحاول أن يصارع هذا الإحساس بإنشاء علاقة غرامية لا معنى لها، فيقابل جارته المائعة ويركب السيارة كان يقود في صمت ويرفض أن يسير في الاتجاه المطلوب، وظل يقود السيارة (هادئاً راسخاً، محايداً).

وكما نرى فإن هذه النهاية المفتوحة على المجهول توحي بمصير الإنسان الذي يسير مجبرا في طريق لا يعرف نهايته. إنها الرؤية العبثية المغرقة في التشاؤم، وهي الرؤية التي لا تختلف عن رؤى كتاب من أمثال (بيكيت) أو (يونسكو) أو (كافكا)، وغيرهم من الكتاب الأوروبيين الذين يقبرون الأحلام البشرية.

٢- نــزعة التشـيؤ، وهي النزعة التي تتجلى مـــن خلال الحرص على الموضوعية وتسجيل الواقع تسجيلاً حرفياً.

ومن هنا نجد إدوارد الخراط يسهب في رسم الأجواء في قصصه ويغرق في الجزئيات والتفصـيلات على حساب العناية بعناصر كانت تحــظى باهــتمام الكاتب أكثر من غيرها، مثل عنصر الشخصية وعنصر الحدث.

في(قصة ميعاد) يرسم الخراط الشاطئ على نحو الآتي :

(نظـرته معـلقة بـالموج الثقيل الذي يترقرق كثيفاً في محبس ضيق ينتهي إليه من رحابــة البحر الفسيح، تحت الأحجار العريضة التي ترتفع من سيف الرمل القليل، صلدة متينة الأســر اكتســب لونهـــا الرمادي العتيق الذي يتحدد كل يوم.

وقــد ســحرته هذه الخطوط المتسايلة الــلزجة، يتمــتع تحتها الضوء المنعكس عن مصــابيح الكورنيــش، فـــي غبرة مساء قليل الوضـــوح. واستهوته، بغموض، هذه النعومة الدســمة الطرية في الماء،يستشف من تحتها، فـــي الضوء الكهربي، جسد الرمال الراكدة في هذا الركن المطمئن، بينما الأمواج ما تفتأ تأتي من بعيد، في كبرياء، تمتلئ بها جوانب البحر، وتـــرتمي على الشاطئ برغوتها المحنقة لتعود من جديد، عالية الصدر.

هــذا المجلس الصغير وحده أفلت من كــبر الــبحر، وكأنـــه قد نزل على كل خيلاء، وأوى إلى الضــوء تــرقيه فوقـــه مصـــابيح الطريق، وإلى لمعات مدينة مشعة من النجوم، وعجيــنة هــذا الماء الرخي تنساب في طيات بطيئة كثيفة).

ومـــثل هـــذا الوصـــف قد يعرقل سير حركة الأحداث فيجعلها بطيئة، وخاصة إذا كان يســـتغرق فترات طويلة، وأحياناً صفحات على نحو ما نرى في قصة (في داخل السور).

إلا أن إدوارد الخـــراط غالباً ما يحاول أن يـــربط وصف الأجواء والمناخات والأشياء بمصـــائر الشخصـــيات، وهـــو ما يتراءى لنا بوضـــوح فـــي قصـــته الموسومة ب (حكاية صـــغيرة فـــي الــليل)، حيث يربط الكاتب بين مصــــير(هدى) العاملة التي كانت تقاوم السقوط إلى هاوية الرذيلة دون جدوى.

إن الكاتب في هذه القصة يتتبع حركات فراشـــة تدخـــل إلى غرفة (هدى) فجاءة على النحو الآتي:

(وجاءهـــا مـــن الــليل طنين مكتوم. ووثبت من الظلمة إلى دائرة النور فراشة ليلية بيضـــاء، راحت تحوم حول المصباح الكهربي المتقد الساكن، وهي تئز كقطعة صغيرة انتقلت مـــن آلة هائلة دوارة، قذف بها خطأ، أو قدر، أهـــلها الضوء المفاجئ، فهي تدور في حلقات ســريعة متقلـــبة، حتى اصطدم جناحها بحافة المـــاء في القدح، وانبعثت - ولما تكد - رعدة خفيفـــة فـــي الماء المسجونة، وكانت هدى قد شرد وعيها.

فالتفـــتت فجأة إلى ذلك الكون الخاص المضيء في ركن الحجرة، ذلك العالم المستقل الـــذي تمـــده بالحيـــاة شمسه الكهربية. وأخذ بصـــرها آخـــر حـــركة للحياة في ذلك العالم. والفراشـــة تغـــوص فـــي الماء. مضغة مبللة بيضـــاء راح لونها يدكن بسرعة. وسرى في القدح ضباب خفيف من الهباء الأبيض، ضباب

باهت كالقمر ينسكب في البرد على عالم جامد خاو).

فالكاتب هنا يحرص على ربط مصير (هدى) بهذه الفراشة الهالكة موحياً بما كان يضطرب في داخلنا من هواجس وخوف من السقوط.

٣- النزعة التجريدية التي تتجلى في محاولة تجاوز الشرط التاريخي الراهن والتركيز على جوهر الإنسان الذي يسمو على ظروف الزمان والمكان أو يسمو على السياق التاريخي.

إن الأفراد الذين يريدون أن يتسلقوا جدران العبث الملساء دون جدوى في قصص إدوارد الخراط يعدون حالات إنسانية عامة وليس حالات ترتبط ببيئة محددة أو زمن معين. وهذه النزعة التجريبية لا تتراءى لنا في بحث الأفراد عن معنى حسب، وإنما تتراءى لنا كذلك في المواقف الإنسانية التي تعكس صراعاً دراميا بين الخير والشر، وبين العدل والظلم.

ففي قصة تحمل عنوان (في داخل السور). نرى ثلاثة رجال يثبون على قريبتهم (هينة) اليتيمة فيقتلونها، لا لشيء إلا لشبهة باطلة حامت حولها، وفي قصة (الشيخ عيسى) نرى شيخ الطريقة الصوفي الذي كان يطيعه الجميع ويأتمرون بأمره، يضطهد ابنه (مخلوفاً) الذي ماتت والدته، ويأخذ منه فتاته التي أراد أن يتزوجها، فيهج هارباً إلى مصر حيث يعمل في أحد المصانع.

وفي قصة (طلقة نار).

يثور والد الطالب (أنيس) عندما يعلم بعلاقته مع إحدى الراقصات، ويمنعه من العودة إلى كلية الطب قاطعاً عليه مساعداته المالية، ولكننا نفاجأ بذلك الوالد يقع في شباك تلك الراقصة ذاتها ويتزوجها، فما يكون من ابنه (أنيس) إلا أن يضع حداً لحياته بطلقة نار.

إن مثل هذه المواقف القصصية التي تكشف عن إفلاس المنطق والعقل البشريين، وانصياع الإنسان لغرائزه البوهيمية المدمرة، تعد مواقف تجريدية شاملة يمكن أن تحدث في أي سياق تاريخي.

ولذلك فإن هذه الحساسية الجديدة تتناقص تماماً مع الكتابات التاريخية التي كانت سائدة منذ الثلاثينات من القرن العشرين، وخاصة تلك الكاتبات ذات المنحى الواقعي.

٤- كسر البناء المتسلسل للزمن، ذلك أن الزمن في قصص هذه المجموعة لم يعد زمناً هندسياً ممتداً في تسلسل منطقي ينطلق من الحاضر إلى المستقبل أو ينطلق من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، وإنما أصبح زمنا منكسراً، يتصرف فيه الكاتب بحرية مطلقة فينتقل بالقارئ من المستقبل إلى الماضي إلى الحاضر كي يعود إلى نقطة البداية في المستقبل، وهكذا دواليك، خاصة وأن الكاتب يتيح الفرصة أمام شخصيات قصصية كي تحلم أو تهذي أو تسترجع ذكرياتها بكل حرية (تقنية الفلاش بلاك)، وهو ما يبدو لنا في قصة (في ظهر يوم حار).

حيث نرى الشاب (جابرا) المثقف الحالم الذي اعتاد على استرجاع تفاصيل الماضي، كما يبدو لنا في قصة (طلقة نار)، حيث كان الطالب (أنيس) يسرح في ذكريات طفولته التي أصبحت ملاذه الأخير بعد تخلي والده عنه:

(وبهرته فجأة، صورة قديمة من حياته مشـرقة فياضة بالنور. كيف كان في طفولته يعـبث فـي جرن القرية الواسع الجاف، ذات صـباح خـريفي مشمس، بين أكداس الهشيم الذهـبي المتخـلف عـن دريس القمح، وأبوه يرقـبه وهو يحاسب الفلاحين، كيف كان يقفز فـوق الهشـيم الـناعم فـتغوص فيـه قدماه الصـغيرتان، وتـتدحرج على الكومة الكبيرة، فـتمرغا فيـه بترف. وأبوه يضحك فجأة ملء فمـه تلك الضحكة القوية التي تملأ عليه الأفق بالدفء والأمان).

٥- تفـتّت الحدث: إن مثل هذه الاسترجاعات والأحلام والهواجس التي تستهدف الكشف عن الجـزء العـائم في كتلة الثلج، ثلج الواقع أو الـلحظة المحاصـرة، تمارس تأثيراً قوياً في طبيعة الحدث القصصي وبنائه، ذلك أن الحدث لـم يعـد حدثـاً مغلقاً ذا بداية وحبكة وعقدة ونهايـة، على نحو ما نرى في قصص محمود تيمـور، أو توفيـق الحكيـم، أو أحمـد رضا حوحـو، أو محمد عبد الحليم عبد الله، أو عبد السـلام العجيـلي، وإنما أصبح مفتوحاً ومفتتاً غير متماسك، بل إنه أحياناً يكاد يتلاشى تماماً عـندما يكـون الـتركيز على تصوير الأجواء والمـناخات والأشـياء، على نحو ما نرى في قصة (في ظهر يوم حار) أو في قصة (حيطان عالية) الآنفتي الذكر.

٦- تحطيـم اللغة الزجاجية، والمقصود باللغة الزجاجية هنا هو اللغة المعجمية الشفافة التي حـاول إدوارد الخـراط أن يـتجاوزها فـي مجموعته (حيطان عالية)، ويستبدلها بلغة من غايات الكتابة.

ويكفـي أن تمثل على هذا التعامل مع اللغة بفقرة مقتطفة من قصة (أبو توما):

(يا يسوع، إنه فقد صوابه هذه الليلة. وسـحابة شريرة أغرقت روحه بالخيالات هذا الـنداء الشـهي كم مرة ينبعث لـه. له وحده يدعـوه. مـرة من الظلمة في ركن الصومعة، خافـتاً متآمرا يقظا في الليل. ومرة من الريح في الخارج، ضاحكاً معابثاً، ناعماً بتلك النعومة اللاعـبة المرحة، يرتعش لها جسده، كرعشة المـوت. ومرة في صوت أغن يشكو ويعاتب. كيـف يصـده؟ كيـف يـنحيه؟ ويأتيه النداء ضـارعاً فـي لهفة كأنه يموت من الشوق ثم يصـمت، لكـي يراوده فجأة في أنين مسترحم عميق).

إن الكـاتب هنا يطنب في وصف حالة نفسـية اسـتثنائية غامضة، ويتخذ هذه الحالة تعـلة لاستعراضـات لغوية إنشائية تغدو هي الغايــة الحقيقية من الوقوف عند هذه الحالة، وليـس الحالـة في حد ذاتها. وبعد، فإن هذه الحساسـية الجديدة التي تتراءى ملامحها في أعمـال زكـريا تامـر، جـاءت في وقت غير مناسب في تقديري، لأن القصة العربية الحديثة فـي حاجـة إلى أعمـال إبداعية كثيرة تتمثل الشـكل الكلاسـيكي الـذي لم يستنفد إمكاناته وطاقاته الجمالية في الأدب العربي، خاصة وأن هـذه الحساسية لم تكن إفرازاً لشروط تاريخية عربية محلية بقدر ما كانت إفرازاً للمثاقفة.